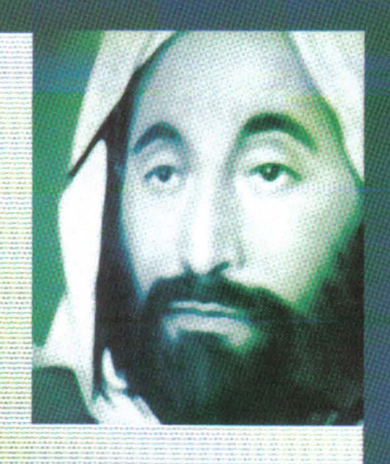


محمد الميلي

ابن باديس وعروبة الجزائر



محمد الميلي

ابن باديس وعروبة الجزائر



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

القسم الأول

تقديم وتعريف

تقديم وتعريف

عندما توفى ابن باديس ، كان عمري عشر سنوات ... كان يوما من أيام ربيع ١٩٤٠ .. عرفت بعد ذلك انه كان يوم ١٦ ابريل ١٩٤٠ . وكانت فترة استعداد للمولد النبوي ، الذي كنا نحتفل فيه بتفجير « المحارق » في النهار . واطلاق الشماريخ في الليل .

اذكر جيدا ذلك اليوم . كنا مصطفين في فناء المدرسة العربية (الحرة) (مدرسة حياة الشباب) استعدادا للدخول الى الفصل ، عندما اقبل علينا المعلم (علي بو المرقة رحمه الله) يقول بصوت كان يحاول ان لا يبدو مضطربا : انصرفوا لا دراسة اليوم ، فقد توفى الشيخ عبد الحميد .

انصرف التلامذة فرحين .. فرصة جديدة للعب .. خصوصا وان موسم المولد على الابواب ، والزمن ربيع ، والشمس ساطعة . كان الوقت بعد الظهر . ذهبت بسرعة الى المنزل لاخبر والدتي بالنبأ ، قبل ان اعود الى الشارع ألعب مع الاخوان . كان والدي متغيبا في قسنطينة .. وكنت أعلم انه ذهب هناك عندما سمع بمرض الشيخ .

دخلت المنزل جريا بعد أن دفعت الباب بشدة ، كما هي عادتي عندما أعرف أن أبي غير موجود . كانت امي تعد العشاء .. ما تزال صورتها عالقة بين عيني : رجلاها ممدودتان حول القصعة ، يداها تذهبان جيئة وذهابا داخل القصعة في حركة دائرية لا تتوقف الا لتغربل الطعام ، فتنزع منه الحبات الكبيرة المتعجنة . ــ لم نقرأ اليوم لان الشيخ عبد الحميد توفى ..

قلتها في لهجة شبه محايدة .. كل ما أنا متأكد منه أن الحزن لم يكن باديا على نبراتي عندما تلفظت بالكلمة .. كان شعوري هو شعور معظم رفاقي في المدرسة :فرصة جديدة للعب وتفجير المحارق قبل وصول اليوم الموعود : يوم المولد النبوي ، فجأة توقفت امي عن الحركــة .. لبثت ، لحظة ، شبه مشدوهة ، قبل ان تفجر في :

فال الله ولا فالك .. أصحيح ما تقول ؟

عندما تأكدت من صحة النبأ ، اجهشت بالبكاء .

احسست آنذاك أن موت الشيخ بن باديس لم يكن حدثا عاديا .. صحيح اني كنت شاهدت الشيخ عبد الحميد في بعض زياراته لبلدنا ، وفي بعض الفترات التي اصطحبني فيها والدي الى قسنطينة .. ولم يرسب في خاطري من تلك المشاهد ، الا صورة رجل مهيب ، صارم الوجه ، يترك فيك انطباعا انك امام جبل رغم قامته القصيرة .

لكن لم أربط بين تلك الصورة، وبين ما يمكن ان يحدثه خبر الوفاة. في الغد ، بعد دفن الشيخ ، قدم والدي .. استقبلته فرحا ، كما هي عادتي عندما يأتي من قسنطينة ، كان نادرا ما يعود فارغ اليدين لنا ... وكانت لهفتي هذه المرة أشد ، نظرا لموسم المولــد : فقد عــودني أبي على أن يأتي لي من قسنطينة بأصناف من الشماريخ والمحاريق لا توجد في قريتنا الصغيرة .. وكان ذلك يتح لي فرصة الزهو على الرفاق ، ان أملك ما لا يملكون .. لكن دهشتي كانت كبيرة ... لم يكلمني ابي .. أو بعبارة أدق لم يجد القدرة على الكلام .. تحركت شفتاه ، لكن بدون صوت .. وظل كذلك بضعة ايام .. كان خلالها يعرب عن مطالبه بالاشارة ..

تأكد عندي آنذاك الانطباع السابق حول وفاة الشيخ عبد الحميد.

لست اشك ، أن ذلك الانطباع هو الذي يفسر الصورة التي ظلت

عالقة بذهني للشيخ ابن باديس .. لكنها ظلت صورة مبهمة .. تحيط بها هالة أسطورية تعززها أقوال الذين درسوا عليه أو عاشروه ..

ولم احاول ان اتعرف اكثر على حقيقة الصورة الى أن كان عـــام ١٩٦٤ .

في هذه السنة قررت أن اتعرف على الرجل من خلال كتاباته ، وليس من خلال ما يقال عنه . وبدأت في مطالعة مجموعة « الشهاب » التي خلفها لي والدي في جملة ما خلف ، ومع كل عدد أطالع ، اكتشف جانبا مهمـــا في شخصية الرجل .. وكان من حصيلة تلك المطالعات ، هي بعض مقالات ومحاضرات صدرت في « المجاهد الثقافي » وفي المجاهد الاسبوعي ، وفي « الشعب » ، هي التي رأيت أن اجمعها هنا وأنشرها رغم ما بها من نقص ورغم ما أعرفه فيها من نزوع الى تمجيد الشيخ ، لاني أعتقد ان التعريف برجل مثل الشيخ ابن باديس ، في فترة معينة ، يتطلب مثل هذا الاسلوب .

● ❋ ●

ولد ابن باديس في ديسمبر ١٨٨٩ ، وسط اسرة مـــن اكبر الاســـر القسنطينية ، يمتد نسبها الى أسرة مالكـــة هي أسرة المعـــز الصنهاجي ، وسنرى ـ من خلال بعض نصوصه ـ أن ابن باديس المعتـــز بعروبتـــه ، المتمسك باسلامه ، لا يحاول اخفاء هـــذا الأصل الامازيغي ، بـــل هـــو يعلنه ويعتز بـــه .

وقد كانت اسرة ابن باديس من بين الاسر التي تعاملت مع الادارة الاستعمارية ، فجده ، مكي بن باديس ، كان قد تحصل على وسام مـــن يد نابليون الثالث عام ١٨٦٤ [١] أمـــا أبوه ، محمد المصطفى ، فقد كان عضوا في المجلس الاعلى للجزائر .

---

(١) علي مراد Ibn Badis Commentateur de Coran ص. ٢٤. نشر SNED ١٩٧١ .

أتم ابن باديس حفظ القرآن في السنة الثالثة عشرة من عمره [1] أخذ مبادىء العربية ومباديء الاسلام عن الشيخ حمدان لونيسي (الذي هاجر فيما بعد الى المدينة حيث توفي) .

تحول بعد ذلك الى جامع الزيتونة . حيث درس من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١٢ . كان طموح ابن باديس هو أن يتفرغ للتدريس في قسنطينة ، وان يكون واسطة عقد حلقات دراسية ، مثل تلك التي شهدها في تونس والتي فتحت عينيه على آفاق جديدة ، وفتقت نظره وفكره ؛ لكن صعوبات مؤقتة منعته من تحقيق حلمه آنذاك .

ولا شك ان شابا ، مثل ابن باديس طلعة ، لم يكن ليقنع بأن يقبع دون عمل ، رغم أن وضعية اسرته تسمح له بذلك . وقد كان ابن باديس خلال دراسته بتونس . قد اتصل ببعض روافد الفكر العربي والاسلامي الاصلاحي . ولا شك ان ذلك الاتصال — غير المباشر — قد اثار عنده علامات استفهام ؛ لم يستطع ان يجد عنها كلها اجابات كافية .

لذلك فكر في القيام برحلة الى المشرق العربي ، بمناسبة موسم الحج . وقد كان ابن باديس في حاجة للقيام باتصال مباشر مع مواقع الفكر الاصلاحي في المشرق . خصوصا وان الجزائر كانت ، عشية الحرب العالمية الأولى ، تواجه وضعا خاصا بفعل التمييز العنصري الذي مارسه الاستعمار والذي عرف بـ « قانون الانديجينا » ، وبفعل فرض الخدمة العسكرية على الجزائريين ، بعد أن كانت قاصرة على الفرنسيين .

ولا شك ان رهافة حس ابن باديس التي ضاعفت منها الوضعية

---

(١) عمار طالبي . ابن باديس حياته وآثاره . ج ١ . ص ٧٤
دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨

الخاصة لجزائر ذلك العهد ، قد جعلته مهيأ اكثر من أي وقت مضى لتلقي التيارات الفكرية التي كانت تسيطر على المشرق ، والتأثر بها •

لكن ابن باديس ، على الرغم من تأثره المؤكد بمدارس الاصلاح الديني في المشرق ، استطاع ، ان يقدم اضافات مهمة الى الفكر الاصلاحي وكانت اضافاته عملية اكثر منها نظرية ، لان الاسهام الذي قدمه ابن باديس لحركة الاصلاح الديني ، كان نتيجة تحليله للظرف الخاص الذي كانت تمر به الجزائر فيما بين الحربين ، اكثر مما كان نتيجة تفلسف نظري وبحث في التجريد •

ان استقراء كتابات ابن باديس ، اذا كان يجعلنا نعثر على مواطن الشبه والتأثر بالمدارس الاصلاحية المشار اليها آنفا ، فانه يؤكد لنا في الوقت نفسه النهج الخاص الذي اتنهجه ابن باديس في دعوته الاصلاحية والبعد السياسي الواضح الذي اعطاه لحركته •

وهذا ما دفع المستشرق الانكليزي جيب ، الى تسجيل هذه الحقيقة عندما كتب يقول :

« نظمت في الجزائر » جمعية علماء جزائريين «لنشر مذهب المنار». كانت الجمعية تعارض بصفة خاصة « المرابطين » والطرق الصوفية •وذهب الجزائريون الى أبعد مما ذهب اليه حزب المنار • فزيادة عن دعايتهم المطبوعة والشفوية ، شرعوا في احياء المدارس القرآنية الابتدائية وانشائها في جميع انحاء البلاد للتأثير على الجيل الصاعد • وقد تكللت جهودهم بالنجاح ، اذا أخذنا في الاعتبار العراقيل التي اصطدموا بها [١]

---

(١) Gibb. Les tendances modernes deL'Islamp.49
Gibb traduction française de B. Vernier.
G. P. Maisonneuve et Cie. Paris 1949.

صحيح أن نخبة المثقفين بالجزائر . لم تكن فيما بين الحربين العالميتين بمعزل عن التيارات الثقافية والسياسية التي كانت تهـز شمال افريقيـا ومجموع العالم العربي . سواء كانت اسلامية شرقية الاتجاه ، أو غربية المنهج والمصب .

لكن ميزة ابن باديس ، انه كان عنصرا بارزا بين النخبـة المثقفـة بالعربية . وانه استطاع ان يتجاوز حدود محيطه . ليتبادل النقاش والحوار والتأثير مع النخبة المثقفة بالفرنسية . أي انه لم يكن من ذلك النمـوذج السلفي المنغلق . الذي يجمد على النصوص . والذي يفقد امكانية الحوار الحقيقي . أي يعجز عن الاخذ والعطاء .

ولم يلبث ابن باديس ، ان شعر . بعد تفرغه للتدريس ، تحقيقا لحلمه بأن حلقـات الدرس في الجـامع الأخضر لا تكفي لتحقيـق ما يطمـح اليه مـن تغيير وما يصبو اليه من تجديد .

لذلك اسس منذ ١٩٢٥ صحيفة « المنتقد » التي كان عنوانها وحده عبارة عن برنامج كامل . فقد أرادها تحطيما لعالم قديم ، عالم كانت تهيمن عليه الزوايا والطرق الصوفية ، وتحاول منع رياح التجديد من الدخول اليه بواسطة تجسيم شعارها آنذاك « اعتقد ولا تنتقد » . فكأن ابن باديس ، اراد أن يقول من خلال اختيار هذا العنوان ان خلاصنا الحقيقي هو في القضاء على هذا الشعار ، وفي انتهاج النقد لكل ما هو قائم .

ونفس البرنامج يشعر به اختياره لعنوان « الشهاب » الذي خلف « المنتقد » . فعلى الرغم من الطابع الديني الذي يشعر به هذا العنـوان فانه يوحي في نفس الوقت بالطموح الى اضرام النـار في القديم البـالي الميت الذي يريد أن يتحكم في الاحياء وفي المستقبل ، والى انارة الطريق للجيل الصاعد ، نظرا لما في « الشهاب » مـن معاني النار والضوء .

وراح ابن باديس يعمق عمله ويصعد نشاطه ، من الدروس المنجدية الى منبر الجريدة ، الى مدارس اللغة العربية ، الى التبشير بالاصلاح الديني والاجتماعي على نطاق واسع بعد تأسيس جمعية العلماء ، الى الاحتكاك بالاحزاب والاوساط السياسية المختلفة ، داعية الى الاتحاد ، مبشرا بالتغيير .

ويجب التنصيص على نقطة تبدو لنا هامة في هذا المجال وهي تفطن ابن باديس ليس فقط الى أهمية العمل الصحفي ، ولكن أيضا الى شروط نجاحه ، فقد اراد أن يوفر اقصى ما يمكن من شروط النجاح لجريدته بواسطة تأمين مطبعة ، تكون ملكا له ، حتى لا تكون طباعة الجريدة عبئا عليه . ومن هنا سعيه ونجاحه في انشاء « المطبعة الجزائرية الاسلامية » بقسنطينة عام ١٩٢٥ التي كانت تقوم بمختلف انواع الطباعة الى جانب طبعها للشهاب وحده في مرحلة أولى وللشهاب والبصائر في مرحلة ثانية.

وليس من المبالغة في شيء القول بأن « المنتقد » كانت أول صحيفة جزائرية طلائعية بالعربية اما « الاقدام » الذي اصدره الامير خالد والذي كان جريئا جدا ، فقد كان يصدر بالفرنسية . فعلى الرغم من الدائرة الاصلاحية الدينية التي كان يصدر ضمنها « المنتقد » ثم « الشهاب » ، فان الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والسياسية من الحياة الجزائرية ، ما لبث أن ظهر وتأكد ، ولهذا حرصنا على أن نثبت في القسم الثاني من هذا العمل ، مجموعة من المقالات التي تكشف عن فكر ابن باديس السياسي .

قد يبدو المصير المدهش الذي لقيه نشاط ابن باديس غريبا لمن يعرف اسرته وانتماآتها السياسية .

ويمكن تفسير ذلك بمجموعة عوامل أبرزها عامل تأثره ـ خلال

دراسة الابتدائية بقسنطينة ثم الثانوية بجامع الزيتونة ـ بمشايخ ينفرون من العمل في نطاق الادارة الفرنسية مثل الشيخ حمدان لونيسي،ومشايخ سلفيين اصلاحيين ، مثل الشيخ محمد النخلي ومن هنا كانت رغبته القوية في اعادة الاعتبار الى الاسلام بواسطة عمل لا يندرج في الدائرة الادارية الفرنسية . بل يقع خارجها ان لم يكن موجها ضدها .

وفعلا فان ابن باديس نفسه يسجل تأثره بنصيحة شيخه ، حمدان لونيسي الذي حذره من قبول اية وظيفة في الادارة الفرنسية .

في هذا الاطار نجد ان عوامل محيطه ، التي هي عوامل يسر ورخاء والتي كان من الممكن ان تدفعه الى اختيار وضعية مريحة . وضعية العالم الديني المحترم الذي يعيش عيشا رغدا ، ويكتفي بتوجيه الأرواح الى عالم الآخرة . نجد ان تلك العوامل تحولت الى عوامل تدفع الى القلق وتضاعف من عدد التساؤلات .

ولا يستبعد أن تكون وضعيته الامتيازية ، قد جعلته ،نظرا للاتجاه الذي أثر فيه . يكتشف بؤس الفئات التي كانت تسهم في صنع مجده وشهرته كعالم ديني وكمصلح اجتماعي ، وهي الفئات الشعبية التي تشكل القسم الاكبر من مريدي دروسه الدينية والتي كانت تتشكل من عمال بسطاء ، وحرفيين صغار ، وفلاحين فقراء او متوسطي الحال .

وليس من المستبعد ان يكون البؤس الذي اشتد في نطاق الاستعمار وتضاعف في اعقاب الحرب العالمية الاولى بفعل ازمة العالم الرأسمالي ، قد دفع ابن باديس الى ان يتعاطف مع هذه الفئات ويحاول العمل على اعادة النظر في كل ما كان مسلما به آنذاك .

وهنا لا يستبعد ان يكون ابن باديس قد اهتدى الى ان انتماءات

اسرته وعلاقاتها مع الادارة الاستعمارية يمكن ان تكون في خدمته بدل ان يكون هو في خدمتها • وفعلا فقد استغل هذا الوضع الامتيازي واستخدمه بذكاء الى ان توفاه الله •

ويدل على ذلك حرصه على ان يظل « الشهاب » ، ملكا له ، أي مجلة مستقلة عن جمعية العلماء بعد تأسيس هذه في اعقاب الاحتفالات بمرور قرن على الاحتلال الفرنسي • وكان استقلال «الشهاب» عن الجمعية ، يتيح له ان ينشر فيه من الآراء والنداءات ما قد يعارض فيه بعض اعضاء الجمعية او اغلبيتهم ، فمثلا ، كان ابن باديس ، قد ارتأى ، بمناسبة الاحتفالات التي اعدتها الادارة الفرنسية بمناسبة مرور قرن على سقوط قسنطينة (١٩٣٧) ، أن ينشر نداء الى الشعب في صحيفة الجمعية يطالب فيه الجماهير بمقاطعة تلك الاحتفالات •

لكن اغلب اعضاء الجمعية خافوا مغبة ذلك على مصير الجمعية، فعارضوا نشر النداء ، في « البصائر » لسان حال جمعية العلماء » • آنذاك قرر ابن باديس نشر النداء في «الشهاب» وقال لهم ما معناه : « الشهاب ليست مجلة الجمعية ولا تنطق باسمها ، فاذا نشرت النداء بها، فسأحكم باسمي الشخصي ، وليس بوصفي رئيسا للجمعية» •

والخلاصة ان ابن باديس قد ترك ، في ظرف زمني قصير نسبيا،نحو عشرين سنة ، تأثيرا بالغا ، كما ترك كتابات هامة ، لعبت دورها حين صدورها ، وما تزال فيها بعض دروس وعظات لمن يتأمل ويبحث •

● ★ ●

واني بهذا العمل الذي اعرضه اليوم على القارىء العربي ، وخاصة في الجناح المشرقي ، من وطننا الكبير ، لا أدعي اني اقدم عملا متكاملا، او دراسة نقدية شاملة ، كلا فانا اعرف ان ما كتبته في فترات متباعدة ، ليس الا محاولات ناقصة لازاحة الستار عن بعض جوانب من شخصية

ابن باديس ، كما بدت لي من خلال ما قرأت له ، اكثر مما بدت لي من خلال ما سمعت عنه .

وقد حاولت استكمال هذا النقص ، بتقديم نماذج من كتاباته ، وخاصة السياسية منها ، التي شدت انتباهي وأثارت اندهاشي عندما اطلعت عليها لاول مرة في عام ١٩٦٤ .

وعساني بهذا العمل المتواضع ، اكون قد اديت ما علي من التزام نحو العديد من الاخوان والاصدقاء الذين كاشفتهم بالانطباعات التي تركتها عندي قراءة مجموعة «الشهاب» و «البصائر» والذين طالبوني بنشرها وتعميمها .

« محمد الميلي »

ابنُ باديسْ ... هذا المجهُول

ما يزال المثقفون والمفكرون العرب يولون اهتماما كبيرا بكل ما يتعلق بالجزائر ، ومن هنا ما زالوا يبحثون ، كلما سنحت فرصة عن كل ما يساعدهم على فهم التطورات التي اجتازتها وتجتازها الجزائر وقد حدث أكثر من مرة ، اني حدثت بعض الاصدقاء العرب ـ في معرض الحديث عن تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ـ عن الشيخ عبد الحميد بن باديس وكنت في كل مرة أعرض فيها الحديث عنه ، أتجنب أسلوب التمجيد الاجوف ، بل أسوق نماذج من كتاباته وتفكيره ومواقفه كما هي دون تعليق. وقد لاحظت أن رد فعل الأصدقاء العرب كان دائما واحدا : كيف لا تعرفون بمثل هذه الشخصية ؟ لماذا لم تنشروا كتاباته ؟ لماذا لم تعرفونا به ؟ لماذا لم تنشئوا جائزة باسمه ؟ لماذا لم تعملون على تعريف الأجيال العربية الناشئة به ؟.

كان ذلك دائما هو رد الفعل الذي أواجه به ، سواء كان محدثي من المغرب أو من مصر ، من السودان ، أو من سوريا ، من العراق أو من

---

* نشر في جريدة الشعب الصادرة بتاريخ ١٦ ابريل ١٩٦٧ .

لبنان أو من أي بلد عربي بل وحتى من خارج البلاد العربية في بعض الاحيان •

لذلك رحبت كثيرا بفكرة الاخ السعيدي في اصدار ملحق خاص بالشيخ عبد الحميد بن باديس ووعدته بالمساهمة في المشروع •

لكن قدر لي أن أتغيب عن الجزائر مدة أطول مما كان في الحسبان، وظننت عندما رجعت أن ادارة « الشعب » نسيت مشروع الملحق ، شأن كثير من المشاريع التي تتحدث عنها ولا ننفذها لكني فوجئت بأن المشروع ما زال قائما ، وأن الاخ سعيدي مصمم على مطالبتي بتنفيذ الوعد• فلم اجد بدا من القيام بمحاولة مستعجلة ، هدفها هو دفع لوم اكثر مما هو قيام بواجب •

مصاعب :

لعل أهم صعوبة يصطدم بها الباحث لشخصية عبد الحميد بن باديس هو تنوع هذه الشخصية وخصبها ونشاطها في أكثر من ميدان •

فقد كان يقوم بالتدريس في الجامع الأخضر لطلبته منذ سنوات طويلة ، ويسهر على ادارة «الشهاب» والكتابة فيها وتقوم بالقاء دروس دينية اجتماعية ليلا ، ويتولى تسيير شؤون جمعية العلماء. ويتعهد القاعدة الشعبية باتصالات مستمرة في جولات لا تترك مكانا من الجزائر مهما بعد عن مقر عمله •

ثم هو في كتاباته شديد التنوع فهو مربي من نوع جديد ، وامام في الدين ، ومجتهد في التاريخ ومجدد في الصحافة ، ومصلح في الاجتماع، ومفكر في السياسة •• ومن هنا يجد الباحث نفسه مأخوذا بهذه الشخصية

الفذة ، لا يدري أي جانب يوليه بالبحث خصوصا وانــه لا توجـد الى الآن [1] دراسة شاملة لجانب واحد من جوانبه فيتوزع اهتمام البــاحث بين ميادين مختلفة سرعان ما يشعر بعجزه عن القيام بها .

تلك هي احدى المصاعب الاساسية التي وقفت في طريق التعريف بابن باديس ، يضاف الى ذلك أن تراث ابن باديس ليس متوفرا أمام الجيل الناشيء من الشباب الباحثين : فلا تكاد تعثر على مجموعة كاملة مـــن « الشهاب » أو حتى على معظم أعدادها الا عند قلة من الناس قد لا تكون لهم اهتمامات فكرية اطلاقا .

وزاد في تعقيد هذه الدراسة أن الجيل الذي عاشر ابن باديس لــم يكن قادرا ــ بطبيعة تكوينه ــ على فهم الرجل كما يجب . فقد كان ابن باديس يطرح قضايا تتجاوز الاهتمامات الآنية الى المستقبل البعيد . ومن هنا لم يكن ذلك الجيل يتأثر بابن باديس ويفهم عنه الا ما يتعلق بالمشاكل القائمة أو بالجوانب البارزة من المشاكل القائمة . ومن هنا كانت الصورة التي نقلها الجيل الذي عاشر ابن باديس الى الاجيال بعده ، صورة ناقصة على الرغم من أنها صورة لامعة ومشعة .

المفكر السياسي :

من أبرز الجوانب التي تلفت نظر الباحث في شخصية ابن باديس هو جانب المفكر السياسي فيه فقد كان ابن باديس يهتم بالمشاكل السياسية ، ويتناقش فيها ، ويتحدث الى الجماهير عنها ، لكنه لم يكن يقتصر فـــي

---

(1) صدرت بعد كتابة هذا المقال ، دراسات وبحوث متخصصة عن بعــض جوانب ابن باديــس .

تناولها على الجانب الآني الذي يشترك في تصويره كل المثقفين ، بل كان يتجاوز ذلك الى تحليل كل الأبعاد العميقة التي لا تظهر للعين مباشرة ، لانها ما تزال مختفية في أطواء المستقبل . وكان وهو يتعرض لقضية قائمة. لا يفوته أن يستخلص المبادىء العامة التي تقوم عليها ، ويصوغها صياغة تصلح معها لان تكون منهاجا كاملا وليس مجرد مقال عابر أو خطبة سياسية .

ومن ابرز مميزاته في هذا المجال أنه كان يهتدي لاحسن الشعارات تعبيرا عن طبيعة المرحلة . فقد كان الشعار الذي يضعه على غلاف « الشهاب » في الثلاثينيات هو : « الحق والعدل ، والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » وكان هذا الشعار في أعوام ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ تعبيرا عن اهتمامات مرحلة معينة من مراحل الكفاح السياسي . كان اهتمام السياسيين فيها منصرفا الى الحصول على جميع الحقوق المدنية والسياسية والغاء الفروق التي كانت تجعل من الجزائري مواطنا من الدرجة الثانية .

وقد ظل ابن باديس يعمل في اطار هذا الشعار سنوات مستعملا مختلف الحجج بما فيها منطق الاستعماريين أنفسهم : فاذا كانت فرنسا تعتبر سكان الجزائر فرنسيين تثقل كاهلهم بنفس الواجبات التي تثقل بها كاهل أبنائها ، مثل التجنيد في الحرب . فلماذا لا تعطيهم نفس الحقوق ؟

وهنا يجب أن نشير الى الفاصل الاساسي الذي كان يفصل ابن باديس عن غيره من سياسي تلك المرحلة : فقد كان شعار هذه المرحلة عند ابن باديس مجرد محاولة تكتيكية تدخل في اطار هدف استراتيجي أعم هو الاحتفاظ بالشخصية الوطنية ومقاومة محاولات التذويب والمسخ ، فالمساواة بالفرنسيين التي كان يطالب بها كانت تهدف الى تعزيز مقومات

الشخصية الوطنية وتدعيم فرص بقائها وثبوتها ، وبالتالي التمهيد للانفصال بها عن فرنسا . كان يريد من المساواة في الحقوق مع الفرنسيين أن تكون طريقا سليما يؤدي الى الانفصال عن فرنسا. (وأمامي عدة كتابات وأقوال من ابن باديس تؤكد هذه الحقيقة)[1] .

في حين أن ذلك الشعار عند المثقفين الذين اعتنوا بالسياسة في ذلك الوقت كان هدفا استراتيجيا في حد ذاته : فاقصى ما كان يصبو اليه أولئك هو أن تتحقق المساواة بين الرجل الجزائري والرجل الفرنسي ، ولا شيء وراء ذلك ، أما انفصال الجزائر عن فرنسا فلم يكن يخطر لهم على بال .

وهم في الواقع مشددون لهذه النظرة بطبيعة تكوينهم الثقافي الاستعماري : فالمساواة كانت تعني عندهم الحصول من طرفهم على امتيازات تجعل منهم طبقة متميزة عن الشعب « فليس من المعقول أن يعاملوا هم المثقفين نفس المعاملة التي يعامل بها سائر الشعب الأمي » . ذلك هو جوهر نظرتهم الى القضية كما تظهر من أقوال ابن جلول وأمثاله.

أما ابن باديس فقد كان يرفع هذا الشعار وعينه لا تفارق مواقع الشعب ، كان هذا المطلب عنده وسيلة فقط تسخر لغاية أبعد وأهم ، وهي تحقيق انفصال الجزائر عن فرنسا .

هذه الحقيقة تؤكدها كتاباته وتحليلاته لاهم القضايا والمشاكل التي كانت مطروحة آنذاك ففي عام ١٩٢٩ رفع جمع من المثقفين الجزائريين المتجنسين شعار : « تعليم المرأة الجزائرية وتحريرها من الحجاب » فتكلم

---

(١) يجد القارىء في القسم الثاني من الكتاب نماذج من كتاباته تلك ، ومن اراد مزيدا فعليه بمجموعة الشهاب .

ابن باديس في الموضوع والقى في أوت ١٩٢٩ محاضرة بنادي الترقي بالعاصمة وضع فيها قضية تعلم المرأة الجزائرية وتحررها من الحجاب في اطاره الصحيح . فأكد ان ثقافة المرأة الجزائرية يجب أن تكون عربية ـ اسلامية . لماذا ؟ لان تعليم البنت الجزائرية لغة غير لغتها وتاريخا غير تاريخها من شأنه أن ينتج للجزائر أجيالا تجهل ماضيها وبالتالي تتنكر لوطنها . ويسجل ابن باديس في هذا المجال الدور الذي تلعبه المرأة في ربط رجل الغد بتاريخه وبوطنه وبالتالي في اعداده للمعركة . فالمهم اذن هو صيانة البذور الوطنية الاولى عند الطفل . هو التأكد من زرعها من طرف الام فاذا تثقف الرجل ثقافة اجنبية بعد ذلك فهناك فرص لتصحيح الانحراف .

أما اذا كانت الام مؤمنة بالثقافة الاستعمارية ، فان بذور الوطنية الأولى تنعدم عند طفلها وتنتج للجزائر أبناء يتنكرون لها ويعتزون بغير حضارتهم .

على أن مفهوم التمسك بالتقاليد وبالثقافة العربية الاسلامية التي كان يدعو اليها ابن باديس لم يكن مفهوما منغلقا ، بل كان مفهوما منفتحا على ثقافة العصر من جهة ، ومرتبطا بالوطن العربي من جهة أخرى . فقد كان ابن باديس في صحافته يحرص على اعطاء القضايا العالمية ما تستحقه من عناية . وكان دائما يجعل قضايا الوطن العربي في مقدمة هذه القضايا .

ويؤكد ابن باديس نظرته هذه في مقال كتبه عام ١٩٣٦ تحت عنوان « لمن أعيش » [١] .

---

(١) هذا المقال مدرج في القسم الثاني من الكتاب

مفهوم المؤتمر الاسلامي عند ابن باديس :

ويعتبر قمة التطور في هذا الخط ، الخط الذي يمثله شعار الدعوة الى المساواة هو « المؤتمر الاسلامي » وهنا نلمس أيضا ذلك الفارق الحاسم بين ابن باديس وغيره من السياسيين الذين ساهموا في المؤتمر فسياسيو المؤتمر جعلوا من أهدافه غاية • وحاولوا تخدير الشعب بأن مطالبه هي أقصى انتصار يمكن الحصول عليه • ومنوا الشعب بأن الحكومة الفرنسية مستعدة لتحقيق تلك المطالب •

أما ابن باديس فقد كان جانب المفكر البعيد النظرة يطغي فيه دائما على الجانب السياسي لذلك أعلن ــ وهو ما يزال عضوا في المؤتمر ــ أن الهدف من وجوده هو ضمان الشخصية الجزائرية وأن المطالبة ببرنامج بلوم ــ فيوليت ، يجب أن لا تتحول الى مشروع يهدر مقومات الشخصية الوطنية •

وعندما رجع وفد المؤتمر من باريس خطب سائر أعضاء الوفد ملحين على الجانب السياسي ــ المهرجاني من زيارة الوفد ، وقدموا مساعيه في شكل عمل بطولي ، وقالوا ما معناه للشعب : النتيجة آتية ولا ريب ، ولم يبق الا أن يقولوا : انتهت المعركة •

لكن الشيخ عبد الحميد بن باديس قال شيئا آخر ، فلم يحاول التهوين من المسعى ، لكنه لم يعمل على تخدير الشعب ، بل دعاه الى الاستعداد لمعركة أشق وأشد ضراوة • قال بالحرف الواحد :

« أيها الشعب انك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها • تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا

لأجلها . اننا مددنا الى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا ، فان مدت الينا يدها وملات بالحب قلوبنا فهو المراد ، وان ضيعت فرنسا فرصتها هذه فاننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها الى الأبد .

« أيها الشعب . لقد عملت ، وأنت في أول عملك . فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام . واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو الا خطوة ووثبة وراءها خطوات ووثبات وبعدها أما الحياة وأما الممات » .

ذلك ما قاله ابن باديس بالحرف الواحد . بعد عودة وفد المؤتمر من باريس في صيف ١٩٣٦ وقد تفطن آنذاك الى طبيعة المرحلة الجديدة فأزاح شعار :

« الحق ، والعدل . والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » .

ورفع شعارا آخر أكثر تعبيرا عن ضرورات المرحلة ومتطلباتها وهو شعار :

« لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله » . لان المرحلة الماضيةكانت مرحلة أمل في تحقيق مطالب الشعب بطريق سلمي بواسطة « تفهم » فرنسا « واعطائها جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » . أما المرحلة الجديدة فهي مرحلة الكفاح والاعتماد على النفس وغلق القلوب على فرنسا الى الأبد ، والاستعداد لمعركة ضارية بعدها « أما الحياة وأما الممات » .

والتعبير هنا بـ : « أما الحياة وأما الممات » ليس مجرد نسق لفظي اقتضاه مقام الحماس ولكنه تجسيم لحقيقة عميقة وتعبير عن فهم

دقيق لضخامة المعركة وأبعادها ، وقد عبّر ابن باديس عن هذه الحقيقة في مقال آخر كتبه عام ١٩٣٧ أشار فيه الى أن اليأس من فرنسا يدعم خط السير في طريق الثورة ، طريق « المغامرة والتضحية » . وقد ظل كثيرون من السياسيين والوطنيين الى عام ١٩٥٤ يعتبرون أن طريق الثورة هو « طريق المغامرة » .

لكن الفرق بين تقييم ابن باديس للمغامرة وبين تقييم بعض السياسيين المحترفين ، ان ابن باديس لم يجعل وصف « المغامرة » تنفيرا من العمل الثوري ، وتعزيزا للنظرة الواقعية حتى يقدم الشعب على المعركة وهو على بينة من الأمر ، وحتى تستعد لها الطليعة القائدة أكمل استعداد ممكن .

وكان في نفس الوقت يعتبر هذا الطريق حتميا لا مناص منه ولا خيار في تجنبه .

أما السياسيون المحترفون فقد كانوا يلحون على جانب « المغامرة » لتصفية الداعين الى الثورة ولتعطيل حركتها، ولتبرير الهروب من الميدان، أو كانوا يفعلون ذلك نتيجة قصور في فهم حقيقة المعركة وفي تصور ضرورتها وحتميتها .

ولم يفت ابن باديس أن يسجل أن مطالب المؤتمر كانت ــ بالنسبة لفرنسا ــ فرصة لن تسنح لها في المستقبل، وهو عين ما سجله الملاحظون والكتاب الأجانب بعد قيام الثورة الجزائرية أي بعد حوالي عشرين سنة.

ابن باديس والقاعدة الشعبية :

ولم يكن ابن باديس ليكون هذا المفكر السياسي العميق لو أنه كان منفصلا عن الشعب بعيدا عنه، فاتصال ابن باديس بالشعب واستلهامه

له هو الذي يفسر ـ بالاضافة الى استعداده النظري وعبقريته ـ هـذا التوفيق في التعبير عن مطامح الشعب ، والاهتداء الى طبيعـة المعركـة ومتطلباتها •

فلا يفوت مجلته . في ربيـع ١٩٤٩ ـ أن تستخلص العبرة مـن نجاح مرشح حزب الشعب في معركة انتخابية دارت حول مقعد من مقاعد المجلس العمالي ؛ وكان هناك مرشحون أربعة : أولهم يمثل « المدرسة العتيقة » حسب تعبير « الشهاب » ، والثاني يمثل «الحزب الشيوعي» . والثالث يمثل الفكرة الوطنية المعتدلة والمؤتمر الاسلامي ؛ والرابع يمثل حزب الشعب الجزائري • يقول « الشهاب » في استخلاص العبرة مـن انتصار ممثل حزب الشعب :

وقف عشرة آلاف من الناخبين وقفة فاحص خبير أمـام المترشحين الأربعة : ذلك تنصره حكومته ومالها ؛ وذلك تنصره مبادئه الشيوعيـة وحزبه ؛ والآخر تنصره مبادىء المؤتمـر وسياسة المطالب والمشاركـة ؛ والأخير ينصره اضطهاد اخوانه واستشهاد زعمائه وما يحملـه من فكرة استهجان الطرق السياسية التي اتبعت الى يومنا هذا •

كان الدرس الأول الـذي ألقاه الشعب في هـذا الانتخـاب هو الاستقلال التام وعدم التأثر بما كان يتأثر به الناخبون من قبل •• فـلا التضييق الاداري ولا التوسلات الحكومية ولا الأموال التي تتداول بين أيدي السماسرة استطاعت أن تميل الكفة لجانب رزق محي الدين « ممثل الادارة » الذي كان هو المنهزم الظاهر في هذه المعركـة أمام المنهـزم الحقيقي الأكبر في المعمعة فالقراء يعلمونه ولا مـوجب لذكره وتعيينـه جريا على قاعدة : جواز حذف ما يعلم •

أما الدرس الثاني الذي ألقاه حزب الشعب في هذه المناسبة فهـو

يأسه من الحكومة ومن كل اصلاح يحصل بواسطة المطالب والوفود ٠٠ اذ لم ينل أحد من ممثلي سياسة المطالبة والوفود الا نحو من ١٤ من أصوات الناخبين ٠

واتجهت الجماهير أفواجا رغم التهديد والوعيد صوب المرشح الوطني ، لا يهمهم من شخصه شيء انما يهمهم أنه يمثل برنامجا ضد تلك السياسة التي مجتها الاقلام ٠٠ يمثل سياسة اليأس من عدالة فرنسا والنقمة على سلوكها وتصرفاتها ٠

أما الدرس الثاني البليغ الذي ألقاه الشعب على مسمع الادارة والحكومة وعلى مسمع كل من يريد أن يسمع فهو ذلك التغير الجسيم في فكرة الأمة ، وقد كانت بالأمس تبتعد عن كل مضطهد وتتواصى بالانفضاض من حول الذين مستهم اليد الادارية بسوء فاذا بها اليوم تتضافر حولهم وتحيط بهم وتساندهم ٠٠ » ٠

وابن باديس يسجل هنا وفي مقالات أخرى ترجع الى نفس الفترة ، تفطنه الى التغيير الذي حدث في ميزان القوى السياسية ٠

فالآن وقد تفطن الشعب الى حقيقة المعركة ، وقد وعى قوته ، فقد تغير ميزان القوى لصالح الناطقين والمعبرين عن المطامح الشعبية ولو كانوا مضطهدين من طرف الادارة ٠

ابن باديس والعرب :

ونفس النظرة العميقة ، نظرة المفكر الفاحص نجدها عند ابن باديس عندما يتناول أحداث التاريخ بالتحليل ٠

فقد ألقى في عام ١٩٣٩ محاضرة بعنوان : « العرب في القرآن » أكد فيها ذلك الفكر الثاقب الذي يعرف كيف يتخلص من التقاليد

السائدة ، فقد فند في تلك المحاضرة الصورة التقليدية التي تقدم العرب في صورة همج لم يطورهم الا الاسلام ، ويتناول الموضوع بعقلية المفكر السياسي وليس بعقلية مفسري القرآن التقليديين ، فهو يقول مثلا :

« .. والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل من جهات متعددة . وفي الغرب نواح تجتبى ونواح تجتنب .. وهذه هي طريقة القرآن بعينها . فهو يعيب من العرب العيوب النفسية كالوثنية ، ونقائصهم العقلية كالقسوة والقتل ، وينوه بصفاتهم الانسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات » .

ثم يقول بعد أن يورد آية في قوم عاد :

« ومن هذه الآية وحدها نستفيد ان عادا كانت أشد الأمم قوة ، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة الا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض ، وان القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات وانما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومعاداة الله » .

ثم ينكر على المفسرين التقليديين اللفظيين انصرافهم عن المعاني الحقيقية التي تحملها كلمات « المصانع » و « السائحات » ويقول لماذا نفسر المصانع بالتصور ولا نفسرها بمعناها الحقيقي ، في حين ان المصانع من مستلزمات الحضارة والعمران ، ولماذا نفسر السائحين والسائحات بالصائمين والصائمات ولا نفسرها بالرحالين والرواد الذين يجوبون البلاد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار ؟.

وهنا نلاحظ ان ابن باديس قد تخلص من الاطار التقليدي الذي يلتزم به رجال الدين عادة ، اطار النظرة الجامدة الغبية الى القيم والأشياء ، فهو لا يخلط بين المؤهلات ونتيجتها كما يفعلون ، ولكنه

ينظر الى القضية نظرة ديناميكية حية تفرق بين طبيعة المؤهلات وبين مجال استخدامها .

فالتحليل العميق الناتج عن أعمال الفكر المتفتح يلازم كتابات ابن باديس سواء تناول قضية قائمة ، أو مسألة تاريخية .

ولا يفوتني هنا أن أشير الى أن تقييم كتابات ابن باديس ومواقفه يجب – لكي يكون سليما – أن يكون مصحوبا بتحليل شامل للعصر الذي قيلت فيه ، لانه بدون ذلك لا نستطيع أن نفهم الكثير منها، وقد يؤدي بنا الأمر الى عدم انصافه .

أذكر اني عندما اطلعت على بعض كتابات ابن باديس في عام ١٩٤٦ ، صدمتني بعض تصريحاته التي يؤكد فيها عمله في الاطار الفرنسي . في حين ان تحليل مجموعة ما كتب بالاضافة الى دراسة متعمقة للعصر تكشف عن مغزى وحقيقة مثل تلك التصريحات وتضعها في مكانها اللائق ... فالعزم على العمل في الاطار الفرنسي ، كان يمثل مرحلة فقط من مراحل تفكير الشيخ وكان يهدف في تلك المرحلة الى تحقيق الانفصال عن فرنسا بوسائل سلمية كما قلت .

أما بعد ذلك فقد استخلص العبرة وأكدها بما لا يترك مجالا للشك في سلامة تفكيره . أسوق هذه الملاحظة ، لاني سمعت مرة أحد الذين عاشروه يحاول التجني عليه – بعد وفاته بسنوات – ويقول ما معناه : كان ابن باديس لا يجرؤ على أن يقول الكلام الذي نقوله نحن الآن ؟

ان هذا النوع من المقارنات السطحية التي تغفل اطار العصر وتغفل عن تحليل مجموع الكتابات والمواقف ، خطر كبير يجب أن نتجنبه في مجال تقييمنا لكل ما يتصل بالتراث .

وبعد فانه ليس في امكان مقال يكتب على عجل أن يتناول هذا الجانب أو ذاك من جوانب الشيخ عبد الحميد ، كما ينبغي أن يكون لكني فضلت ـ وقد طلب مني الاسهام في ملحق الشعب ـ أن أشارك ولو كانت مشاركة ناقصة وأن أشير الى جوانب قد لا تكون معروفة عند كثير من القراء ولو كانت اشارات مبعثرة غير منسقة ، فضلت ذلك على عدم المشاركة .

والحقيقة ان فكر ابن باديس أعمق وأهم وأخطر من أن تكفي فيه محاولات فردية منعزلة لذلك نرجو من قيادة الثورة الجزائرية أن تشجع دراسة ابن باديس والتعريف بفكره ، وأن تسهم في الكشف عن مدى الدور الذي قام به في بعث الشخصية الوطنية . وبالتالي في التمهيد لثورة نوفمبر الخالدة ؟

ابن باديس والشخصيّة الجزائريّة

«٣»

* ان جوانب كثيرة من شخصية ابن باديس ستظل غير مفهومة عمليا اذا نحن لم نفهم العصر الذي نشأ فيه ، ونوع الأفكار التي كانت تدور في مختلف أوساطه ٠

* الحرية عند ابن باديس لا تعني حقا فرديا يمارس في حدود الحاجات والمطالب الفردية ولكنها قبل كل شيء تعني حقا جماعيا يشمل كل مظاهر الحرية ، من حرية المعتقد الى ممارسة الحقوق السياسية ٠٠ ثم هي بعد ذلك كله مرتبطة عنده بمفهوم حضاري هو مفهوم الحضارة العربية الاسلامية ٠

* العبقرية والموهبة والابداع لا تكون ذات قيمة الا اذا وفقت في التعبير عن روح العصر ، واذا اهتدت الى استخلاص الطريق السوي ، حيث تنتشر البلبلة ويعم الاضطراب ٠

تعرض ابن باديس لنوعين من الظلم : ظلمه من الجزائريين ٠٠ مَن حكم عليه دون أن يعرفه معرفة حقة ، ودون أن يكلف نفسه عناء البحث في كتاباته وتقييمها تقييما سليما داخل الاطار الزمني الذي عاشه ، وظلمه من مجّده

---

* نشر في العدد ١ من المجاهد الثقافي .

تمجيداً أعمى واعتبره عبقرية فذة دون أن يحاول البحث في الأسباب التي جعلت ابن باديس عبقريا ، ودون أن يجهد نفسه في تحليل عصره والظروف التي اعتملت في تكوينه وتوجيهه •

ذلك أن القول بأن انسانا ما عبقري موهوب واعتبار عبقريته وموهبته شيئا قائما بذاته لا ارتباط له بما يحيط به من مشاكـل واحداث ، يكون بمثابة الحكم على انسان بالجنون ، فالعبقرية والموهبة والابداع لا تكون ذات قيمة الا اذا وفقت الى التعبير عـن روح العصر بأسمى تعبير ، واذا اهتدت الى استخـلاص الطريـق السوي حيث تنتشر البلبلـة ويعـم الاضطراب •

ومن هنا نجد أن عظماء الانسانية سواء كانوا أنبياء أو رجال فكـر أو قادة شعوب يظهرون في عصور الاضطـراب الفكري عنـدما تختلط السبل ، وتتضارب المفاهيم ، ويتكاثـر دعاة الهدايـة أو غربان الضلال • اذن فليست العبقرية هي الخلق من عدم ، والاتيـان بأفكار شاذة قـد لا تختلف في أساسها عن تلك التي تصدر عن الهذيـان ، ولكن العبقريـة الحقة والمعجزة الانسانية هي في التفطن لواقـع العصر ، والاهتداء الـى روحه ، والتوفيق في التعبير عن حاجاته •

وهذا هو السبب في أن عظماء التاريخ لا يظهرون عادة الا بعـد أن تسبقهم ارهاصات وتحركات تكون في الواقع تعبيرا عن بـدء الشعـوب بالمشاكل ، وعن التخبط في مجاهل البحث عن حلولها ، وبعد ذلك يأتـي العظيم أو العبقري ليمثل مرحلة النضج والوعي في سير حركة التاريـخ ، فيطغي على من سبقه ويتميز عنهم ولا يظهر ــ غالبا ــ للعيان الا هو •

بهذه النظرة العلمية يجب أن ننظر الى العلماء والعباقرة ،وهذه النظرة ليس

فيها أي حظ من قيمة العبقري أو العظيم . لاننا لا نعظم الشخص عندما ننسب اليه أنه خلق كل شيء من عدم ، بل اننا بمثل هذا الموقف تتجنى عليه أكثر مما نسجده ، وها هي الرسالات السماوية نفسها تؤكد لنا هذه الحقيقة الخالدة : فالحلول التي يحملها الأنبياء والرسل لأممهم أو للأنسانية مرتبطة بمشاكلهم .

اذا سلمنا بهذه الحقيقة وتأكدنا أن العبقرية الحقة والعظمة الحقة هي في التفطن الى روح العصر وفي الاهتداء الى أسلم الحلول للمشاكل القائمة أصبح من الضروري أن نلم المامة خاطفة بعصر ابن باديس لكي نعرف على ضوءه ، قيمة ابن باديس وعظمة ابن باديس .

فتحليل عصر ابن باديس ومعرفة مختلف التيارات التي تكون منها مناخه تفيدنا جدا في معرفة المقومات الفكرية لشخصية ابن باديس وفي تحديد مدى تفاعله مع عصره ومع مشاكل شعبه .

عصر ابن باديس :

يمكن أن نحدد المناخ الفكري الذي تكون فيه ابن باديس بالفترة الواقعة فيما بين عام ١٨٤٧ م ــ وهو عام انتهاء كفاح الأمير عبد القادر ــ وعام ١٨١٨ م ــ وهو العام الذي انتهت فيه الحرب العالمية الأولى ــ .

ومن المعروف ان متاعب فرنسا العسكرية في الجزائر لم تنته بانتهاء عبد القادر . فعندما استولى نابليون الثالث على الحكم عام ١٨٥٢ ، كانت هناك مناطق شاسعة من الجزائر ما تزال خارجة عن النفوذ الفرنسي . فالمناطق الواقعة ابتداء ببلاد القبائل على أبواب العاصمة الى غابة سكيكدة، كانت غير خاضعة للفرنسيين وفي نفس الوقت كان جنوب الجزائر يتحرك

وتنطلق منه الهجومات في اتجاه الشمال فقد ظهر في الجنوب آنذاك الشريف محمد بن عبدالله الذي كان قد تعاون قبل ذلك مع الفرنسيين واشتغل نائبا للجنرال بيجو في تلمسان . وعندما عزل من منصبه بطلب من (كافينياك) لجأ الى الشرق ومكث هناك ثلاث سنوات . وقد أجرى في الشرق وفي مكة خاصة عدة اتصالات أقنعته بضرورة استئناف المعركة بعد عبد القادر ، فعاد الى الجزائر عن طريق طرابلس فغدامس فتقرت ، ودعا سكان الجنوب الى الثورة واستطاع أن يفرض سلطته على الاغواط . وعلى الرغم من الطرق التي اختطها الجيش الفرنسي في المناطق الثائرة وخاصة بين بوسعادة وأفلوا والجلفة والاغواط ، وبين ميلة وجيجل ، وبين سطيف وتاكيتونت (عشرين كلم جنوب شرقي خراطة) ، فان الفرنسيين لم يتمكنوا من السيطرة على كامل المناطق الثائرة . وهذه الحقيقة لم تفت ملاحظا مثل الدكتور فيتال الذي كتب من قسنطينة الى صديق له عام ١٨٦١ يقول :

« ان سيطرتنا هنا ستنتهي كما انتهت سيطرة الاسبان والبرتغال » .

وكتب في ٨ أفريل ١٨٦٤ يقول :

« ما تزال هناك كلمات تهز هذا البلد هزا كلما ورد ذكرها ، هي كلمات القومية والاسلام والأرض المقدسة التي يجب تطهيرها من الكفار . هذه الكلمات عندما تتردد تجعل الشعب مستعدا للثورة » .

وقد أورد فيتال هذا في رسالة كتبها في ١٥ جويليه ١٨٦٤ وهي حكاية تجسم مبلغ التضامن بين الشعب اثناء ثورة فرجيوه . خلاصة القصة ان العميل الجزائري الذي اعتمده الفرنسيون ليعينهم ضد ثوار فرجيوة ، سار على رأس ستين فارسا لشن هجوم على احدى القبائل الثائرة لكنه ما كاد يصل الى هدفه حتى وجد نفسه وحيدا بعد أن انفض عنه أصحابه

بدافع توبيخ الفلاحين الذين كانوا يصادفونهم اثناء عمليات الحصاد .

وفي أعقاب هذه الثوراتجاءت ثورة ١٨٧١ التي تلتها ثورةالاوراس في ١٨٧٩ ، ثم حاول الفرنسيون احتلال تونس فأثار ذلك بعض المناطق في الشرق القسنطيني التي وجدت مبررا للثورة بعد قيام ثورة بوعمامة في الغرب الجزائري عام ١٨٨٠ . هذا فيما يتصل بالكفاح المسلح . أما فيما يتعلق بالوضع الداخلي بصفة عامة فقد تميز خلال هذه الفترة بما يلي :

أولا : تشديد الخناق الاستعماري على الجزائريين وخاصة في الأرياف وذلك بواسطة تجريدهم من الأراضي، واثقالكواهلهم بالضرائب، وتعجيزهم اقتصاديا بوسائل مختلفة حتى لا يقووا على أية مقاومة . وقد أدرك الفرنسيون ان نظام الأراضي العروشية من شأنه أن يحفظ روح التضامن الاجتماعي بين سكان الريف ، وان ذلك قد يتحول الى سلاح خطير ضد الوجود الفرنسي في حالة انتشار الوعي السياسي. ولهذا اصدر الفرنسيون قانونا في ١٨٧٣ يتجاهل ما يفرضه نظام العروشية من عدم تجزئة الأرض ؛ ويمكّن المعمرين من الاستيلاء عليها بوسائل وحيل مختلفة .

وكان واضحا ان ذلك كله يهدف الى قتل الشخصية الجزائرية عن طريق الارهاق والتجويع وقد تأكدت هذه النية في المجاعة التي اجتاحت الجزائر فيما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ . فقد كانت نتيجتها كما يلي :

٢٢٠ ألف أوروبي قبل المجاعة ، أصبح عددهم عام ١٨٧٢ ، ٢٧٩ ألف نسمة .

أما الجزائريون فقد كانوا يعدون مليونين وسبعمائة ألف نسمة قبل المجاعة ، فأصبح عددهم في ١٨٧٢ لا يتجاوز مليونين ومائة ألف نسمة .

والملاحظ ان الهجرة الأوربية في فترة المجاعة لم تكن هامة ، بحيث لايمكن أن ننسب اليها فقط تزايد عدد الأوروبيين • في حين ان عــدد الجزائريين ليس فقط لم يزد بل انخفض بنسبة ٢٢٪ •

ثانيا : محاولة القضاء على الدين الاسلامي حتى تنعــدم عوامــل السخط السياسي لان الفرنسيين كانــوا يعتقدون ان القــرآن هو سبب السخط الشعبي عليهم ، بل ان أحد النواب الفرنسيين أكد في البرلمان ان « القرآن هو الذي يحرض المسلمين على اذاية الفرنسيين » •

ثالثا : القضاء على القاعدة القانونيــة التي تجمــع الجزائريين في وحدة منسجمة بوصفهم مسلمين وذلك عن طريق تجزئة القضاء ، واحالة خصومات المسلمين الى القــاضي الفرنسي (الجوج) بمقتضى قانــون سبتمبر ١٨٨٦ • وذلك بقصد تعقيد الاجــراءات القضائية من جهــة ، واخضاع الشخصية القضائية الجزائرية للقانون الفرنسي من جهة ثانية ، تمهيدا لعملية المسخ والتذويب •

رابعا : ظهور فكرة التجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي وفرضها على الجزائريين بوصفهم مواطنين فرنسيين مثــل الأوروبيين الآخريــن • وكان الهدف من ذلك ليس فقط هو الاستعانة بالجزائريين في الحروب ، ولكن أيضا هو تفكيك المجتمع الجزائري عــن طريق الاستحــواذ على شبابه وصرفهم عن التكون في وسط اجتماعي معاد للوجود الفرنسي •

خامسا : تتويج ذلك كله بقانون الانديجينا الذي أنشىء بالنسبــة للاحوال المدنية بمقتضى مراسيم ١٩ أوت و ١١ سبتمبر ١٨٧٤ ، ثم وقــع تمديده الى الاحوال المختلطة في ١٨٨١ • ويمثل قانون الانديجينا محاولة واضحة لقتل بوادر المقاومة عنــد الشعب ، واخضاعه عن طريــق تمكين

القانون الفرنسي من تسليط العقوبات التي يراها مناسبة ، كما يبدو ذلك من قائمة الأخطاء والجرائم الطويلة التي ينص عليها قانون الانديجينا • هذا الوضع تسبب في ردود فعل سياسية وفكرية عديدة ظهرت خاصة فيما يلي :

١ ـ ظهور فئة من المثقفين تطالب بالمساواة في الحقوق مع الفرنسيين لان القانون الفرنسي كان يفرض المساواة في المحن دون الحقوق • فالمؤرخ الفرنسي اندري نوشي يؤكد ان شخصا من عائلة ابن باديس طالب في ١٨٨١ بأن يكون عدد النواب الممثلين في المجالس الجهوية أكبر مما هو عليه • وجاء في وثيقة نشرتها صحيفة الشهاب أن حميدة باديس ـ عم الشيخ عبد الحميد ـ رفع عريضة في نفس الموضوع الى السلطات الفرنسية في غرة افريل ١٨٨٢ من أجل ضمان اسماع صوت الجزائريين • (ولعله هو نفسه الذي يقصده نوشي) •

وفي عام ١٨٨٧ رفعت قسنطينة عريضة تحمل ألف وسبعمائة توقيعا تتحدث باسم الجزائر كلها وتعتمد على العهود المبرمة في ١٨٣٠ وتعارض في تجنيس الجزائريين بالجملة ، وتؤكد عدم وجود اية فائدة في اعطاء الحقوق الانتخابية نظرا لعدم التمكن من ممارستها كما يجب في ظل النظام الاستعماري وكان من بين الموقعين على هذه العريضة الشيخ عبد القادر المجاوي والشيخ حمدان بلونيسي •

وفي أفريل ١٨٩١ رفع أربعة نواب جهويين بقسنطينة ، من بينهم حميدة باديس ، تقريرا عن الوضع بالجزائر ، بمناسبة زيارة لجنة برلمانية فرنسية برئاسة فرانك شقو ، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، يشتمل على وصف دقيق لوضع الجزائريين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقضائي •

٢ ــ ظهور عدة دراسات تاريخية في مطلع القرن العشرين ، كتبها جزائريون ، مثل ابن عمار عام ١٩٠٢ ، وابن مريم سنة ١٩٠٧ ، والورتلاني عام ١٩٠٨ ، والغبريني عام ١٩١٥ وقد وضع أبو القاسم الحفناوي عام ١٩٠٧ معجما تاريخيا اعتمد فيه على الوثائق والمخطوطات الموجودة عند مختلف العائلات . ويشتمل المعجم المذكور على تراجم علماء الدين والقضاء والأدباء ، وينص صاحبه على ان المقصود به هو تعريف الخلف باسلافهم ، كما هو الكتاب (تعريف الخلف برجال السلف) .

٣ ــ ظهور الصحافة العربية الوطنية وخاصة في ولايتي الجزائر وقسنطينة . وقيام بعض الصحف الجزائرية الفرنسية اللسان بحملة واسعة تطالب باعطاء تعويضات سياسية للجزائريين مقابل اجبارهم على التجنيد . ومعنى ذلك انه ظهرت بوادر التحام الصحافة بالمعركة السياسية . فقد كانت الصحافة الجزائرية تورد أمثلة الهروب من التجنيد وتتحدث عنها بلهجة مشجعة .

٤ ــ حركة تركيا الفتاة والحركات الاسلامية والسياسية العربية في المشرق وجدت في الجزائر صدى واسعا . وقد كانت الحرب بين الاتراك والايطاليين مناسبة عبّر فيها الجزائريون عن تضامنهم مع الاتراك ودعوا رتلا من التجار أن يقاطعوا التجار الايطاليين ودعوا السكان الى الاكتتاب لفائدة الحكومة التركية . وكان الرأي العام الجزائري يتتبع المعركة الدائرة في ليبيا واحتفل عند سماعه بهجومات السنوسيين على الايطاليين .

٥ ــ ظهور بوادر التفكير في الاستقلال والانفصال عن فرنسا ، ففي عام ١٩١٦ تشكلت في برلين لجنة تعمل لفائدة استقلال تونس والجزائر . وفي سويسرا ظهرت منظمة تحمل اسم « الاتحاد والتقدم » مهمتها القيام بحركة ثورية تمتد من ارتيريا الى مراكش . وفي برشلونة

جرت اتصالات تهدف الى اضرام نار الثورة في المغرب العربي • وفي لوزان انعقد مؤتمر القوميات حيث تكلم تونسيان نيابة عن الجزائريين ونددا بالمظالم الفرنسية وطالبا باستقلال الجزائر • كل هذه الحركات ظهرت نتائجها حتى في الأغاني الشعبية •

اذن فقد اكتسبت المقاومة الجزائريةضد الاستعمار الفرنسيمظهرين مختلفين : مظهر المقاومة المسلحة من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ • وبعد هذا التاريخ أصبحت المقاومة المسلحة نادرة • ومظهر سياسي يشتمل على تيارات مختلفة من المطالبة ببعض الحقوق السياسية الى التفكير في الاستقلال •

تلك هي الخصائص البارزة في العصر الذي اتصل بعصر ابن باديس• واستعراض هذه الخصائص أمر ضروري اذا أردنا أن نفهم الرجل ، اذ لأن جوانب كثيرة من شخصيته ستظل غير مفهومة علميا اذا نحن لم نفهم العصر الذي نشأ فيه ونوع الأفكار التي كانت تدور في مختلف أوساطه •

ان معرفة هذه الخصائص يزداد تأكدا بالنسبة لابن باديس لانه نشأ في مدينة قسنطينة التي كانت عاصمة ثقافية هامة ، وكانت متفاعلة مع الأحداث السياسية ، ولم ينشأ في دوار بعيد على اهتمامات المدن • ومن ثم ليس من المبالغة في شيء القول بأنه استشعر كل هذه المشاكل والقضايا منذ صغره وانه أحس بها حتى قبل أن يفهمها ، وأنها اختمرت بحسه ودمه وعاطفته قبل أن تتضح في عقله وتتبلور في وعيه •

ومن الواضح ان تلك المشاكل التي كان يعتمل بها عصره والتي أشرنا الى بعض منها تمثل واقع الجزائر وتتصارع فيها عناصر المستقبل الطموح ضد العناصر السلبية من الماضي متعاونة مع الاستعمار ، الذي لم يكن قد فهم انه هو بدوره يمثل ماضيا محكوما عليه

بالزوال . بل كان يتوهم انه هو الذي يمثل المستقبل ، وفي وسط هذا الصراع الذي تتشابك فيه عناصر الماضي والمستقبل وتتداخل تداخلا معقدا ، كان من الصعب على الانسان الجزائري أن يتبين طريقه بوضوح : كان كثيرا ما يبدو الماضي في صورة المستقبل ، وكان المستقبل كثيرا ما يختفي وراء صور تبدو انها من الماضي ، وكانت الأسئلة التي تواجه المثقف في أعقاب الحرب العالمية الأولى أسئلة كثيرة ومتضاربة : من نحن ؟ من تكون الجزائر ؟ من هم العرب ؟ من هم البربر ؟ الى أي مدى يمكن أن تعتبر الجزائر أرضا فرنسية ؟ ما هو الطريق الى المستقبل ؟ هل يذهب شمالا أم يتجه شرقا ؟ والدين والتراث ما دورهما في كل هذا ؟

أسئلة عديدة ومعقدة لا يمكن تقديم أجوبة دقيقة عنها اذا عولجت مجزأة . وكانت النظرة التجزيئية من أبرز صفات المثقفين في تلك المرحلة. ولا شك ان عبد الحميد بن باديس ألقى على نفسه كل هذه الأسئلة ، ولا شك انه حاول العثور على أجوبة لها فيما قرأه أو سمعه أو عاشه . وهو في ذلك لم يكن الا مثل العديد من أبناء جيله .

لكن حسه المرهف ، وعاطفته المشبوبة ، وذكاءه الحاد ، مضافا الى نشأته في وسط متشبع بمشاكل عصره شديد الاحتكاك بالجوانب السلبية والجوانب الايجابية في حياة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، كل ذلك جعل أسئلته لا تقف عند علامة الاستفهام .. وجعل علامات الاستفهام لا تتبدد في خيال مريح ولا تبعد بفعل هروب شرود ، ولا تختفي وراء حجاب مفتعل .. فقد كانت واقعية ابن باديس مضافة الى حسه المرهف تحيل علامة الاستفهام الى واقع قائم يصدم الحس قبل الفكر ، ويلح على العين قبل النظر ، ويثير الرجل قبل الانسان .

ومن هنا كان ابن باديس يعيش مشاكل عصره ويعانيها معاناه فكرية

وحسية .. ومن هنا كان ذلك الانقطاع لمواجهة هذه المشاكل ومجابهتها في جميع الميادين .. ومن هنا كانت تلك العزيمة الحادة التي حققت في العمل اليومي التمازج بين الفكر والقلب والحس في انسجام قلّ أن سجل له التاريخ مثيلا . ومن المؤكد ان مواجهة الأسئلة التي يطرحها العصر بمثل هذه الروح لا يمكن أن تسفر عن أجوبة متقطعة وعن حلول جزئية ، وانها لا بد أن تنتهي الى عقيدة واضحة تستند الى مبادىء ثابتة .

وتلك هي خلاصة الفرق بين السياسي والعقائدي .. ذلك هو الفرق بين رجال السياسة المحترف الذي يرتجل مواقفه حسب ضرورات الوقت ومقتضيات المصلحة ، وبين رجل العقيدة الذي لا يعرف التواء ولا عوجا .. وذلك هو ما يميز بين زعامة السياسي الذي يبني ويعمل للحكم وبين زعامة المؤمن الثوري الذي يقيس عمله بحساب الأجيال وحكم القرون.. لكن مثل هذا الكلام قد يبدو أقرب الى الشعر منه الى الكلام المفيد . فما هي الحجة على صحة هذا الكلام .

ان اقامة مذهب وضبط عقيدة يتطلب قبل كل شيء القيام بمسحة شاملة للوضع القائم ، وتقييم ما فيه من عناصر سلبية وعناصر ايجابية ، وفرز بعضها عن بعض ، والقضاء على ألوان الغموض واللبس التي تلازم عصور الانتقال والتحول والمخاض . ويتطلب الأمر بعد ذلك ضبط خطة مزدوجة للهدم والبناء : هدم المفاهيم الزائفة ؛ ومحو المعتقدات الباطلة، والقضاء على كل ما من شأنه أن يشد الى وراء أو يعرقل السير الى أمام .. وفي نفس الوقت وضع الأسس التي يقوم عليها البناء الجديد وتثبيت قواعده بغرس مفاهيم جديدة وتجديد ما يزال صالحا من المفاهيم القديمة ؛ وتوضيح جميع أبعاد المذهب والعقيدة ما يتصل منها بالداخل أو الخارج ، بالوطن أو الانسان ، بالحاضر أو المستقبل .

ويقتضي الأمر بعد ذلك توضيح الاداة اللازمة للعمل • وأسلوب العمل بكيفية تضمن الانسجام بين الهدف والأسلوب ، كما يقتضي تحديد الاطار الذي يتم فيه العمل ، انطلاقا من الواقع ، لانه اذا كان الهدف طموحا يخرج عن اطار الوضع القائم اذ يؤدي بالضبط الى تحطيمه ، فان وسيلة العمل لا يمكن أن تنجح الا اذا قرأت حسابا للواقع • ويجب أن تفرق هنا بين واقعية العقائدي الذي يهدف من ذلك الى تحقيق النجاح بأقل التكاليف ، وبين واقعية الانهزامي الذي يتذرع بالواقعية للهروب من الميدان • فماذا فعل ابن باديس في كل ذلك ؟

الحق في الحرية :

ان الحقيقة الأساسية التي ينطلق منها ابن باديس في عقيدته الوطنية هي الحق في الحرية • فهو يؤكد : « حق الانسان في الحرية كحقه في الحياة ، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية » والحرية عند ابن باديس لا تعني حقا فرديا يمارسه الانسان في حدود حاجاته ومطالبه الفردية ، ولكنها تعني قبل كل شيء ، حقا جماعيا يشمل كل مظاهر الحرية ، من حرية المعتقد الى ممارسة الحقوق السياسية •• ثم هي بعد ذلك كله مرتبطة عنده بمفهوم حضاري معين هو مفهوم الحضارة العربية الاسلامية • فهو يلح في كل مناسبة على الحرية التي « كنا حاملي لوائها » ، كما يلح على ان قيمة الحرية الفردية لا تعني شيئا اذا لم تكن مستمدة من قيمة أوسع تشمل مجموع الأمة •

اجتمع عبد الحميد بن باديس مرة بشبان جزائريين مثقفين بالفرنسية، ظنوا ان الثقافة الفرنسية قد ميزتهم عن شعبهم ، وان باستطاعتهم أن يكونوا أحرارا أكثر من الشعب ، لكنهم صدموا عندما وجدوا أن الواقع غير ما تصوروا فقال لهم ابن باديس :

« ان الفرد منظور اليه في النظر الاجتماعي العام يُنْظَرُ به الى أمته سواء أساواها في المستوى الذي هي فيه من رقي وانحطاط أم كان أسمى منها أو ادنى ، ففيته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها •

ثم يعقب قائلا :

« لا تلوموا من عاملكم بما تقتضيه نظرة اجتماعية عامة ، ولكن لوموا انفسكم ان جهلتم هذه الحقيقة وانتم ابناء دين قررها من اول ايامه » •

وهو يشير في ذلك الى حديث شريف جعله اساس مقاله هذا وهو : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالحمى والسهر » • اذن فالحرية لا معنى لها الا اذا مارسها مجموع الشعب ، اذا مارسها جميع ابناء الوطن • لكن ما هو الوطن ؟ ما هي مقوماته ؟ اذا كان الوطن هنا هو الجزائر ، فمن تكون هي الجزائر ؟ ومن هم ابناؤها ؟•

عناصر الشخصية الجزائرية :

يؤكد عبد الحميد بن باديس انه ليس هناك من ينكر ان الامة الجزائرية « كانت مازيغية من قديم عهدها » وان جميع الامم التي اتصلت بها لم تستطع « ان تقلبها عن كيانها » ولم « تخرج بها عن مازيغيتها او تدمجها في عنصرها بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون اليها ويصبحون كسائر ابنائها » •

فهو يقرر الأصل البربري المازيغي للجزائر دون أن يحاول انكاره أو تجاهله كما يفعل آخرون• الا أنه لا يلبث أن يقرر حقيقةأخرى لا يستطيع أن ينكرها أيضا وهي أن الامازيغ من أبناء الوطن دخلوا « في الاسلام وتعلموا لغة الاسلام ، العربية ، طائعين ، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة

كلها مفتوحة في وجوههم فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة وقاسموهم في مجالس العلم وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش ، وقاسموهم كل مرافق الحياة ، فأقام الجميع صرح الحضارة الاسلامية » .

وهكذا أصبحوا شعبا واحدا « متحدا غاية الاتحاد ممتزجا غاية الامتزاج . وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان » .

وهكذا يحلل ابن باديس التفاعل الذي تحقق من امتزاج العرب والبربر في ظل الاسلام ، ويؤكد بصريح العبارة مساهمة الامازيغ الى جنب العرب في بناء صرح الحضارة الاسلامية فاستحقوا بنوتها على قدم المساواة دون تفرقة أو تمييز ..

على ان ابن باديس لا يقف عند هذا الحد في تقرير هذه الحقيقة ، فهو يلاحظ بعد ذلك بقليل ان واقع الجزائر أكبر دليل على ما يقدمه لان :

« اللغة العربية والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها » . أما اللغة المازيغية كما يسميها فلا تستعمل « الا في بعض النواحي القليلة استعمالا شفاهيا محليا . ثم اللغة العربية هناك هي لغة الكتابة والخطابة والتعليم » .

ثم يناقش المفهوم المبتذل لتكوين الأمة فيقرر حقيقة علمية أكدها العصر الحديث وهي أنه :

« ليس تكوّن الأمة يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال » .

ولهذا يتألم عبد الحميد بن باديس كلما رأى أو سمع جزائريا يحاول

انكار هذه الشخصية الوطنية ذات الملامح والسمات المتميزة . فهو يخاطب جمعا من المعلمين الجزائريين بالفرنسية . تهجموا على الكيان العربي ــ الاسلامي للجزائر ، ويقول :

« اننا نأسف اشد الاسف من ذهاب معرفة ابناء شعبنا سدى وحرمان الشعب منها بل وجعلها معولا لهدم ما في الماضي من خصائص مشرفة لانه ليس أضر على الأمة من زهو ابنائها وطفرتهم والتغرير بنفوسهم » .

ثم يحدد من هو الوطني في نفس المقال فيقول :

« الوطني الصميم من لا تلهيه المنافع المؤقتة الزائلة عن المنافع الآجلة الباقية ، ويعزو الى ماضيه وحاضره ما لهما وما عليهما ، كما يعزو الى ماضي غيره وحاضره ما لهما وما عليهما . ومع تكييف فكره تكييفا مناسبا للظروف في غير تفريط ولا افراط » .

فمقومات الشخصية الوطنية للجزائر واضحة عند ابن باديس انها تتمثل في :

١ ــ عنصر الامازيغ الذي احتفظ بوجوده قبل الاسلام في وجه حملات الاحتلال الأجنبي فأكد أصالته .

٢ ــ عنصر العرب الذين امتزجوا بالامازيغ في ظل الاسلام .

٣ ــ نتيجة هذا التمازج المتمثلة في :

أ ــ الحضارة الاسلامية .

ب ــ اللغة العربية .

٤ ــ الجوانب الايجابية في الماضي .

٥ ــ الجوانب الايجابية في العصر الحاضر .

تفنيد الفكر الاستعماري ومحاولاته :

كل هذه المقومات اجتمعت في تكوين هذا الشعب وصهرته في آلام واحدة ، وجعلته يتطلع نحو آمال مشتركة ، فلا مجال للطعن في هذه الشخصية ، وهو يتخذ لذلك أساليب شتى ، أبرزها محاولة التفرقة بين العرب والامازيغ أولا ومحاولة التشكيك في الماضي والطعن فيه ، بالمقارنة مع واقع الحضارة الغربية ثانيا . ففيما يتعلق بالمحاولة الأولى ، يكتب مقالا تعمد أن يوقعه باسم « عبد الحميد بن باديس الصنهاجي » بعنوان « ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان » والمقال في الواقع كان خلاصة لخطبة القاها فيمأدبة أثر كلمة أخرى ألقاها الشيخيحيى حموديبالقبائلية. وقد جاء فيالمقالقوله :

« ان أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الاسلام منذ بضعةعشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء ، حتى كونت منهم في أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الاسلام . وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لاعادة كلمة الله ، وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم . فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم » .

وهو يقارن في مقال آخر بعنوان : « كيف أصبحت الجزائر عربية » بين تكوين الشعب الجزائري وتكوين الشعب الفرنسي ، ويؤكد ان اختلاط الدماء في فرنسا وفي الأمم الأوروبية قائم، ولم يمنع ذلك فرنسا :

« ان تكون أمة واحدة لاتحادها فيما تتكون به الامم .علىانكتجد في قرى من دواخل فرنسا أمة واحدة وأعلى جبالها من لا يحسن اللغة

الفرنسية ولم يمنع ذلك القليل ـ نظرا للأكثرية ـ من أن تكـون فرنسا أمة واحدة وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا يتعـامى الغلاة المتعصبون عنها ويحاولون بوجود اللغة المازيغية في بعض الجهات وجودا محليا وجهل عدد قليل جدا بالعربية في رؤوس الجبـال ـ ان يشككوا في الوحـدة العربية للأمة الجزائرية التي كونتها القرون وشيدتها الأجيال » •

ويحدد في نهاية المقال من هو العـربي فيسوق حديثا شريفـا قالـه النبي عليه الصلاة والسلام عندما نفى أحد المنافقين صفة العربية عن سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال :

« وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم • وانما هي اللسان • فمن تكلم بالعربية فهو عربي » •

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية ، وهي الطعـن في التراث عـن طريـق المقارنة مع حاضر التطور الغربي ، فأبن باديس يرسم طريقا واضحا للخروج من الخيار الذي يريد الغرب أن يفـرضه علينا : أمـا ماضيكم وأمـا حاضرنا • ذلك ان الغرب استغل تفوقه الثقافي والحضاري علينا وتخلفنا الفكري فصاغ لنا اختيار المستقبل في قالب طريقين متنـاقضين لا يمكـن التوفيق بينهما ، أما طريق الثقافة الاستعماريـة التي تستلـزم التنكـر للتراث الاسلامي ، والتنصل من أبرز مقومات الشخصية الوطنية ، وأمـا طريق الثقافة الجامدة والانغلاق على الحياة العصرية ومتطلباتها والاكتفاء بالتفرج على الركب السائر بدل السير والاسهام فيـه • هذا هو الخيـار الذي وضعته الثقافة الاستعمارية أمـام الجزائري المتسائـل عن طريـق المستقبل ، كما وضعته أمام كل عربي يقف حائرا على عتبة العصر الحديث وواقعه ما يزال مشدودا الى القرون الوسطى • »

وقد وقع غير واحد في الفخ •• فهناك من ارتمى في أحضان الثقافة

الاستعمارية كلية واعتبر ان ذلك هو الطريق الوحيد ، واتخذ ما ينتج عن كل ذلك من مواقف التنكر للتراث ، والتنصل من الشخصية الوطنية وقد ساعد على ذلك ان الثقافة الاستعمارية تقدم لهؤلاء بريقا انسانيا يجعل كل تعلق بالتراث وبمقومات الشخصية الوطنية يبدو في مظهر الموقف المتعصب الذي يرفض الانفتاح والتطور .

وهناك من جمد على الماضي واعتبر ان لا خلاص الا بالرجوع الى الوراء .. ولما كان الزمن يسير دوما الى الأمام ، فقد لجأ هؤلاء الى نوع من الاحلام والهروب من الواقع في انتظار حدوث معجزة ، او هو في أحسن الحالات يثور بالسيف لمقاومة المدفع .

أما ابن باديس فقد رفض هذه الثنائية ، وهذا الخيار بين طريقين لا ثالث لهما . وأكد ان هناك طريقا ثالثا يتمثل بالضبط في الجمع بين أحسن ما في الطريقين من جوانب الابداع ، وفي الاعتماد على التراث مع الاستفادة من ثقافة العصر . وهو يتخذ هذا الموقف الشامل متناولا المثقفين بالفرنسية :

« عليكم أن تلتفتوا الى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة ، محافظين لها على مقوماتها ، سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الانسانية بانهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها ، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد الى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام » .

ويقول في مقال كتبه عام ١٩٣٠ ردا على موقف اتخـذه جمع من الجزائريين المتفرنسين ضد الثقافة العربية :

« اننا أعلنا ولا نزال نعلن بأننا شعب من أشد الواجبات عليه الاحتفاظ بما في الماضي من نفع ومدنية ، وعدم الزهد فيما في الحاضر من خير ومدنيات والاعراض عن الثرثرة بدون تفكير ولا روية » .

وفي عدد « الشهاب » الصادر بتاريخ ٥ جانفي ١٩٣٨ خصص عدة صفحات للشهيد عمر المختار ، وتحدث عن مساوىء الاستعمار وفظائعه ، ثم عقب ذلك بتوضيح جاء فيه :

« اننا نفرق جيدا بين الروح الانسانية والروح الاستعمارية في كل أمة ، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها ، نوالي تلك ونؤيدها . لاننا تيقن كل اليقين ان كل بلاء العالم هو من هذه ، وكل خير يرجى للبشرية انما يكون يوم تسود تلك. فلتسقط الروح الاستعماريةولتندحر ولترتفع الروح الانسانية ولتنتشر » .

ضد التحديد بالسلب :

وهو يؤكد في كل مناسبة حرصه على طابع الايجابية في الشخصية الوطنية ، فيلح على الانفتاح وعلى نبذ كل تعصب ، فيقول فيخاتمة خطابه عن الشخصية الوطنية وعن ضرورة الوحدة الوطنية :

« نعم اننا تتحد لننفع أنفسنا ، وننفع اذا استطعنا غيرنا . ومعاذ الله والاسلام أن تتحد على أحد ، أو تتفق على باطل ، أو تتعاون على اثم أو عدوان » .

ويؤكد في مناسبة أخرى : « فحب وطنك ولا تبغض أوطان الناس ، انفع وطنك ولا تضر أوطانا أخرى » . فالشخصية الوطنية عند ابن باديس

تتشكل من مقومات ايجابية ، تتحد بها ولا تتحدد من خلال خطوط سلبية أو مواقف ضد شيء ما .. لان التحديد بالسلب يتنافى مع البناء . وعلى هذا الأساس فهي خلو من كل تعصب ومن كل حقد ، ومن كل عنصر هدام ، الا أن يكن ظلما أو استعمارا فآنذاك لا بد من الاصطدام ولا مناص عنه ، ولذلك كتب عام ١٩٣٦ يقول :

« نهضتنا نهضة بنيت على الدين أركانها فكانت سلاما على البشرية لا يخشاها ــ والله ــ النصراني لنصرانيته ولا اليهودي ليهوديته بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته » .

فابن باديس يحرص دائما على اعطاء محتوى تقدمي للوطنية ، وعلى تخليص الشعور الوطني من كل تعصب ، فهو يعلق على مقالة استعماري فرنسي تهجم فيها على العرب . فيصفه بانه « انتي آراب » ثم يقول : « مهما كان مثل هذا الانتي لنا ، فاننا لن نكون « انتي » لاحد لان هذه « الانتية » ضد عقيدتنا وخلاف تربيتنا ... » . وفي هذا تأكيد واضح لايجابية الشخصية الوطنية ومحتواها التقدمي ورفض صارم للتحديد السلبي . تلك أبرز خصائص ومقومات الشخصية الوطنية عند ابن باديس .

التراث والعروبة :

لكن السؤال الذي يظل بعد ذلك مطروحا هو : ما هو الاطار العام الذي تندرج فيه هذه الشخصية الوطنية للجزائر ؟ أو بعبارة أدق : هل كان الاطار الذي تستلزمه مثل تلك المقومات الأساسية واضحا عند ابن باديس ؟ لان اعتماد التراث العربي الاسلامي، واعتماد اللغة العربية واعتماد

الانصهار الذي تم في اطار الحضارة العربية الاسلامية ، يستلزم اطارا واضحا هو اطار القومية العربية . فالى أي مدى كان هذا الاطار واضحا عند ابن باديس ؟ أم ان هذا الاطار تميع في دعوة اسلامية مبهمة كما هو واقع عند كثير من رجال الدين التقليديين ؟

الجواب ان اطار القومية العربية كان واضحا عند ابن باديس ، فقد كتب في جوان ١٩٣٦ بمناسبة ذكرى المولد النبوي مقالا بعنوان « محمد رجل القومية العربية » وهو يفسر هذه التسمية ويعللها تعليلا منطقيا دقيقا اذ يقول :

« ... فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو رسول الانسانية ــ كانت أول عنايته موجهة الى قومه ، وكانت دعوته ترتيب حكيم بديع لا يمكن ان يتم اصلاحا انسانيا او شعبيا الا بمراعاته » . وهو يعلل هذا الترتيب في مطلع المقال المذكور بقوله :

« لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه . فعناية المرء بنفسه ــ عقلا وروحا وبدنا ــ لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد . ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر . لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملا مشتتا لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه . وانما ينفع المجتمع الانساني ويؤثر في سيره ، من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر الى ماضيه وحاله ومستقبله . فأخذ الأصول الثابتة من الماضي وأصلح من شأنه في الحال ومد يده لبناء المستقبل ، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه ، معرضا عما لا حاجة لديه ، أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته » .

ويختم هذا المقال بقوله :

« هذا هو رسول الانسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته ونوجهها توجيهه ، ونحيي لها ونموت عليها وان جهل الجاهلون وخدع المخدعون واضطرب المضطربون » .

وابن باديس عندما يسير على طريق القومية العربية ، يسلك نفس الترتيب المنطقي الذي استنتجه من عمل خاتم الانبياء ، فقد بدأ بتحديد مقومات الشخصية الجزائرية ، ثم تدرج الى تحديد المدار الصغير لهذه الشخصية وهو « المغرب العربي » فهو يؤكد في محاضرة ألقاها بتونس عام ١٩٣٧ ، بطلب من جمعية الطلبة الجزائريين والودادية الجزائرية بتونس ، وكانوا قد طلبوا منه أن يكون موضوع المحاضرة هو الجزائر فقال في مستهل خطابه :

« ... ان الجمعيتين اختارتا أن يكون الكلام عن الجزائر ، وأنا أحب أن يكون الحديث عن عموم المغرب العربي ، لاني أؤمن بأن هذا الشمال الافريقي لا ينهض الا بتضامنه مع بعضه بعضا » .

ونفس الفكرة نجدها عنده اذ يحدد مختلف مدارات الجزائر ، في محاضرة ألقاها على أعضاء جمعية التربية والتعليم بقسنطينة ، اذ يقول :

« نعم ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال . ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص ، نعتقد انه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا اليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص . وأقرب هذه الأوطان الينا هو المغرب الأقصى والمغرب الادنى اللذان ما هما والمغرب الأوسط الا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا واخلاقا وتاريخا ومصلحة ، ثم الوطن العربي ـ الاسلامي ، ثم وطن الانسانية العام » .

فابن باديس هنا واضح في ايمانه بالقومية العربية ، اذ يجعل الاطار الذي يأتي مباشرة بعد المغرب العربي . هو الوطن العربي الاسلامي . هو بهذا التصنيف يتميز عن سائر علماء الدين الذين اشتغلوا بالفكر السياسي، فهو لا يتحدث عن وطن عربي ، ثم عن وطن اسلامي ، ولا يجعل الاسلام قومية متكاملة يسكن لوحدها أن تشكل وحدة .. ولكنه يتحدث عن « وطن عربي اسلامي » أي عن وطن عربي يعتمد أساسا على التراث الاسلامي .

أي ان ابن باديس بهذا التحليل قد أعطى القومية العربية ، منذ ١٩٣٦ نفس المحتوى الذي يتجه نحو الفكر العربي التقدمي الحديث الآن.

ولهذا نجد ابن باديس يعنى عناية كبيرة بكل ما يتصل بالعرب ، ويقول كلمته في جميع قضاياهم ، سواء منها ما تعلق بالتاريخ ، أو تناول الأحداث الحالية . ويحدد في كل مناسبة أسلوب العمل اللازم لتحقيق هدف العرب في الاستقلال والوحدة .

فقد القى عام ١٩٣٩ محاضرة بعنوان « العرب في القرآن » نعتبرها محاولة فكرية بالغة الاهمية في مجال تحديد دور العرب الحضاري قبل الاسلام ؛ وقد كشف فيها تنوع وخصب الشخصية العربية قبل الاسلام ، بما يقضي على المفهوم الذي كان سائدا ــ وما يزال سائدا عند بعض الناس الآن ــ من أن العرب لم يكونوا شيئا قبل الاسلام . يقول ابن باديس في هذه المحاضرة :

« العرب مظلوموز في التاريخ ؛ فان الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الاسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات الى النور ... » [١] .

---

(١) المحاضرة مثبته في القسم الثاني

ثم ينكر على المفسرين التقليديين تفسيرهم للمصانع بالقصور ومجاري المياه ، وللسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات ، ويؤكد ان المقصود بالمصانع هي المعامل ، وان المقصود بالسائحين هم « الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف » لان فائدة السياحة قد تكون « أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود » . ويقرر ابن باديس هنا أن ذم المصانع لم يكن لذاتها ولكن سببه هو تشييدها على القسوة ، « والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية » ولانه « من محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ورحمتها من لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه انسان لا آلة » . وهكذا يهتدي ابن باديس الى سبب الذم ، وهو استغلال الانسان وتسخير العامل .

ولهذا يقدم ابن باديس مساهمة هامة في دحض بعض الأسس التي تعتمدها الثقافة الاستعمارية في الدعاية للفكر الغربي والتنقيص من قيمة الفكر العربي والحضارة العربية . وعندما يتناول القضايا القائمة ينظر اليها دائما من الزاوية العربية فهو يؤكد انه لا يجوز للعرب ان ينفصلوا عن النظرة العربية وان يعملوا حيثما كانوا في تونس او مراكش او ليبيا أو المشرق الا على اساسها .

« لما بينهم من روابط جمعت بينهم ... فهي روابط لا تنفصم ، ولا يمكن ان تنفصم ، وليس من خير البشرية ان تنفصم » .

لكن اذا كان الاسلام يلعب دورا هاما في تكوين الشخصية الوطنية الجزائرية للجزائر ، ولغيرها من الشعوب العربية ، أليس يخشى من ذلك على الشخصية الوطنية أن تتأثر ببعض المفاهيم الرجعية التي لبست لبوس الاسلام ؟ لم يفت ابن باديس أن يتعرض لهذه النقطة ، فقد كتب مقالا

بعنوان : « الاسلام الذاتي والاسلام الوراثي » ، كشف فيه الستار عن هذه القضية وابان به عن النظرة التي يجب أن ينظر بها الى الموضوع ، فهو يقسم الاسلام الى قسمين : اسلام وراثي واسلام ذاتي . وهو يقيّم كلا القسمين تقييما سليما يدل على نظرة تاريخية ناقدة نافذة . اذ انه يؤكد أن :

« الاسلام الوراثي حفظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به ـ وخصوصا العربية منها ـ شخصيتها ولغتها وشيئا كثيرا من الاخلاق ترجح به » .

نتوقف هنا لنلفت النظر الى الجملة المعترضة : « وخصوصا العربية منها » ، فهي تؤكد ما كنا أشرنا اليه آنفا من اعتباره التراث الاسلامي أهم مقومات الشخصية العربية ، وهو في تلك الفقرة ، يكشف عن تفطنه للجوانب الايجابية في الاسلام الوراثي . في حين أن المعروف عن ابن باديس انه كان من اشد المهاجمين للاسلام الوراثي . فتفسير هذا التقييم الايجابي من جهة وذلك الهجوم من جهة أخرى يرجع الى الزاوية التي ينظر منها الى كلا التقسيمين . وتتبين هذه الحقيقة عندما نقرأ في نفس الموضوع :

« لكن هذا الاسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم ، لان الأمم لا تنهض الا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها ، والاسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر ولا نظر » .

من هنا تتبين ان ابن باديس يسجل للاسلام الوراثي جوانب ايجابية عندما يتعلق الأمر بتقييم دوره تاريخيا في الفترات الماضية . أما عندما يتعلق الأمر بالمستقبل ، وبتحديد شروط النجاح في صراع العصر ، فان الاسلام الوراثي يصبح حجر عثرة في طريق التقدم ، فلا يجوز أن تطغى نظرة الماضي على نظرة المستقبل . لكن ما هو الحل ؟ هل يعني ذلك نبذ

التراث الاسلامي والتنكر له نهائيا ؟ كلا . ان الحل الذي يقدمه ابن باديس في القالب الآتي :

« أما الاسلام الذاتي فهو اسلام من يفهم قواعد الاسلام ، ويـدرك محاسن الاسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ، ويتفقه ـ حسب طاقته ـ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ويبني ذلك كله على الفكر والنظر ، فيفرق بين ما هو مـن الاسلام بحسنه وبرهانه وما ليس منه بقبحه وبطلانه . فيحيا حياة فكر وايمان وعمل » .

ذلك هو الطريق .. انها دعوة صريحة الى الاجتهاد . أي الى أعمال الفكر .. دعوة صريحة الى تحقيق التزاوج بين التراث والعصر ، الى تأكيد ان ايجابية التراث متوقفة على مدى تفاعله مع الفكر والعمل .

لو طلبت مني فرنسا أن أقول
لا إله إلا الله ... ما قلتها

تكشف كتابات ابن باديس عن شخصية متعددة الجوانب ، وفكرا نادرا ما يغرق في الجزئيات • كما تكشف عن وجــود تصميم وتخطيــط لمكافحة الاستعمار ، بوصفه نظاما يهدف الى فرنسة الجزائـــر وتفتيـــت شخصيتها ، وسواء كان ابن باديس واعيا بهذا التخطيط ، ام انه كان يطور مواقفه حسب الظروف المعاشة، فان كتاباته تشعر بوجود نية وعزم على تخليص الجزائر من عواقب وتبعات الاستعمار ، اذ انها تتوفر على معظم الابعـــاد الضرورية لتحقيق التغيير في اتجاه التمايز عن فرنسا والانفصال عنها •

وهذا ما دفع ابن باديس ، الى أن يقول في ١٩٣٩ : « والله لو طلبت مني فرنسا أن اقول لا اله الا الله ما قلتها » •

وقد يبدو هذا القول غريبا من رجل دين •• بل ان بعض تلامذتـــه ينكرون ان يكون قد صدر مثل هذا القول عن ابن باديس • وهم يدعمون هذا الانكار بحجج فقهية دينية تغفل عن الجانب السياسي في الموضوع •

في حين ان الذين ينسبون تلك الكلمة الى ابن باديس ، يضعونها في سياق زمني معين ، هو سياق الحرب العالمية الثانية وبداياتها •

وكان الاستعمار في الجزائر آنذاك، قد استشعر بامكانيات الرضوض التي تحدثها الحرب في هياكل سيطرته ، فأراد أن يضمن مؤخرته ، ويتحصل على تأييد الشعب الجزائري في الحرب ، من خلال تسخير رجال الدين حتى يتولوا الافتاء بشرعية « الجهاد » ضد الألمان الى جانب الفرنسيين .

وكان الاستعمار الفرنسي يدرك آنذاك أن رجـال الدين المتعاونين معه ، لن يكون لكلمتهم التأثير المطلوب . لذلك توجه الى العناصر القيادية في جمعية العلماء ، يطلب منهم أن يدعوا الشعب الى التجند ضد النازيـة . فكان هناك من أجاب متملصا « هذه حرب سياسية ، ونحن علماء دين ، فاذا كنتم تطلبون فتوى في هذا الموضوع فاطلبوها ممن تعتبرونهم سياسيين ، مثل الدكتور ابن جلول » .

وكان الدكتور ابن جلول ، آنذاك ، قد فقد كل تأثير سياسي ، بعد ان اتضح للجميع تواطؤه مع الاستعمار ، وخيانته لمطالب الشعب .

وكان هناك ، من رجال جمعية العلماء ، من فضل التعـرض للنفـي والتشريد على أن يقول كلمة تأييد لفرنسا ، بمناسبة الحرب . هذا هـو الظرف الزمني الذي قال فيه ابن باديس كلمته : « والله لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله الا الله ما قلتها » .

والذين يعرفون ابن باديس ، يتحدثون عن حدته ، وصلابته، وصياغته للأحكام القاطعة ، ولذلك لا يستبعد أن تكون تلك الكلمة قد صدرت عن ابن باديس ، تعبيرا عن رفضه المطلق ، لكل ما تشتم منه رائحة النزول عند رغبة فرنسا .

ومما يزيد في تأكيد هذا التصلب الذي ظهر على مواقف ابن باديس ، في أواخر حياته ، أن آماله في امكانية الوصول الى حل ، عن طريق تفهـم باريس وبمساعدتها ، قد خابت كلها . وقد سجل ابن باديس نفسه ، خيبـة

أمله تلك ، في اكثر من مناسبة ، كما يستطيع القارىء أن يتبين ذلك خـلال مطالعته لنماذج من كتابات ابن باديس ، التي اثبتناها في القسم الثاني •

الوحـدة الـوطنيـة

كان مفهوم الوحدة الوطنية واضحا عند ابن باديس ، فعلى الرغم من أن حركته تندرج في اطار الاصلاح الاسلامي فانه ما فتىء واضحا فـي استبعاد طابع التعصب عن حركته ، فهو يقول في مقال نشر عام ١٩٣٦ :

« ••• نهضتنا نهضة بنيت على الدين اركانها ، فكانت سلاما علـى البشرية ••• لا يخشاها ــ والله ــ النصراني لنصرانيته ، ولا اليهـودي ليهوديته ، بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب ــ والله ــ أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدجال لدجله والخائن لخيانته ••• » •

فخط التمايز الذي يضعه ابن باديس ، ليس دينيا ، ــ رغم وجود البعد الديني ــ الاسلامي فيه ــ ولكنه سياسي • انه خط سياسي يفصل بـين معسكر المظلوم ومعسكر الظالم ، يفصل بين معسـكر الوطنيين ومعسكر الخونة ••

ويضيف في نفس المقال ، داعيا للوحدة الوطنية ، ومؤكدا خط التمايز المذكور :

« أما موقف الجمعية مع خصومها ، فانها تعلم أن الامة اليوم تجتـاز طورا من اشق اطوارها وأخطرها ، فهي تتناسى كل خصومة ، وتعمل لجمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، ولا تنبذ الا أولئك الرؤوس ، رؤوس الباطـل والضلال الذين لا تجدهم الامة في ايام محنتها الا بـلاء عليهـا ••• ولا يتحركون الا اذا حركوا لغايات عكس غاياتها » ••

ان « توحيد الوجهة » الذي ينص عليه ابن باديس ، تعبير صريح عن

ضرورة الجبهة الوطنية التي تقوم على استبعاد عوامل الاختلاف الثانوية ، والبحث عن نقط الالتقاء في العمل ضد الاستعمار . وهذا ما جعله ــ وهو العالم الديني ــ في نفس الوقت الذي ينفي فيه عن حركته تهمة الشيوعية ، يسجل المواقف الايجابية للحركة الشيوعية في مناهضتها للاستعمار .

ويحدد ابن باديس في مقال آخر نشر في شهر جانفي في ١٩٣٧ تحت عنوان « لمن أعيش » طبيعة الواجب الوطني فيقول بعد أن يجيب عن هذا السؤال مؤكدا « أعيش للاسلام والجزائر » ما يلي :

« أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص ، وتفرض على تلك الروابط لاجله ــ كجزء منه ــ فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة اليه : الى رجاله والى ماله والى الامه ــ كذلك أجدني اذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة اليه . هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الاعمال ، وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لا بد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال .

نعم ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد وأن نكون قد خدمناها وأوصلنا اليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص » .

المراة والشخصية الوطنية :

على أن ابن باديس لا يطلق هذه النظريات في الهواء ، دون أن يحاول ترجمتها الى الواقع وأعطاءها حياة حقيقية تتجسم بها مختلف أبعادها التي

تندرج كلها في اطار واضح هو اطار محاربة الاستعمار . ومن الجدير بالتسجيل في هذا المجال ، أن محاربة الاستعمار عند ابن باديس تعني التخطيط الشامل لمقاومته في كل ميدان ومحاربته بكل وسيلة . فهو لا يتردد في الاعلان ، منذ عام ١٩٢٩ عن أن المرأة « الجاهلة التي تلد أبناء للامة يعرفونها مثل امهاتنا ـ عليهن الرحمة ـ خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها » لان ابن باديس تبين على أبواب الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي ، قيمة الدور الذي تلعبه المرأة في المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية وذوبانها وان ذلك يمثل سلاحا خطيرا في يد الاستعمار .

وقد أكدت الايام صحة نظرية ابن باديس ، واستطاع ملاحظ دقيق مثل الدكتور فانون أن يتأكد ـ عام ١٩٥٧ ـ من الحقيقة التي كشفها ابن باديس عام ١٩٢٩ ، اذ كتب الدكتور فانون في عدد « المقاومة الجزائرية » الصادر بتاريخ ١٦ ماي ١٩٥٧ يقول : « لقد وصف المفكرون الاستعماريون المرأة الجزائرية بأوصاف مختلفة ، أنهم يزعمون أنها أسيرة ، مهانة متغيبة عن الحياة ، وأن المجتمع الاسلامي لم يترك لها أي ازدهار ، ولم يمكنها من أي نضج وأنه يجبرها على أن تقبع في طفولة دائمة . ان مثل هذه المزاعم قد تحطمت اليوم بفضل التجربة الثورية . فتعلق المرأة الجزائرية ببيتها لم يكن يعني كراهية الشمس أو الهروب من العالم : ان ذلك الانطلاق والانطواء كان يعني المحافظة على بذرة الاخصاب داخل وجود محدود ، لكنه منسجم ويمثل القوى الاساسية للشعب المضطهد » .

فابن باديس يهتم اذن بنوع الثقافة التي ينبغي أن تتثقف بها الجزائرية حتى لا تتحول الى حليف للاستعمار ، وحتى تظل ـ مثقفة أو أمية ـ مصدر تلك الروح الخفية التي تتكون منها الشخصية الوطنية ، وواضح من الجملة

التي سقناها ــ ومن كل المحاضرة التي القاها [1] من هذا الموضوع عـام ١٩٢٩ ــ أن ابن باديس يهتم بهذه القضية اهتماما بقضية أساسية يتوقف عليها نجاح المعركة التي يخوضها الشعب ضد الاستعمار ••

تسخير الرياضة والفن والمتجنسين لخدمة الوطن :

لكن ابن باديس ، في تناوله لقضية أساسية مثل هاته يرتبط بها المصير الجزائري ، لا يهمل الاهتمام بكل الجزئيات والوسائل الاخرى التي قـد تعزز خط الكفاح ضد الاستعمار بكيفية أو بأخرى ــ فابن باديس المعروف بتدينه الشديد ، والمعروف بهجومه العنيف على المتجنسين ــ الذين كان من بين الوسائل التي حاول الاستعمار أن يضعف بها من قوة الشعب المعنـوي وانسجامه الروحي ــ ابن باديس ذلـك لا يتـردد في استمالـة المتجنسين والاحتكاك بهم على أمل تسخيرهم لخدمة القضية الوطنية وقلبهم سلاحـا ضد الاستعمار بدل أن يكونوا معه • فقد استغل عام ١٩٣٠ ــ تذمر أحـد المتجنسين من معاملة الفرنسيين لمجموعة المتجنسين ، فترجم ما كتبه ذلـك المتجنس ونشره في مجلة الشهاب وعلق عليه بقوله :

« ان ما ربطته الفطرة لا ينقضه التصنع ، فهؤلاء القوم من جنسنا وان أبوا ، وتعطفنا عليهم عاطفة اللحمة وان قطعوا ••• ونحن لنا أصدقاء مـن المتجنسين يقولون بأن الجزائريين ينفرون من المتجنسين « ولا يعاملونهم الا مضطرين » • وفيما اذا كانت هناك كراهية للمتجنس فابن باديس لا يربطها بتجنسه ، ولكنه يربطها بسلوكه الشخصي أو السياسي ، اذ يقرر في التعليق نفسه أن المسلمين « يعاملونهم ويحترمونهم شخصيا الا اذا كان منهم مـن يكرهه الناس لشخصيته » •

---

(١) نص المحاضرة مثبت في القسم الثاني .

وهكذا كان ابن باديس لا يترك وسيلة من الوسائل ولا ميدانا من الميادين الا وتدخل فيه على أساس توجيهه ضد الاستعمار لاحباطها في كل الميادين.. ففي نفس الوقت الذي يعنى فيه بالتدريس والوعظ والمحاضرات العامة ، كان يبذل عناية خاصة ، بميادين الشباب الرياضة والفن ، فيساهم في تأسيس الاندية الرياضية ، ويشجع بنفسه المتفوقين من الرياضيين ، ويحضر حفلات الطرب الفني التي تقيمها جمعيات فنية جزائرية . وقد كتب يصف بنفسه احدى هذه الحفلات في عدد فيفرى ١٩٣٠ من الشهاب فقال :

« ... وخطب مؤسس هذه المجلة فذكر الفن في نظر الاسلام والفنون في التاريخ الاسلامي وحاجة الأمة في رقيها الى العلم والفن كحاجتها الى الادب الذي هو التعبير عنها بالاساليب الفنية البليغة ، وشكر الجمعية ورئيسها والفرقة الموسيقية ورئيسها وجملة الحاضرين المؤيدين لها ؛ وانتهت الحفلة عند منتصف الليل وافترق الناس فرحين بما رأوا مستبشرين للنهضة الفنية بالخير » .

طريق « المغامرة »

ولئن ظل ابن باديس وفيا لهذا الاسلوب الستراتيجي الشمولي في مواجهته للاستعمار خلال كل سنوات نشاطه ، فان الاطار السياسي الذي يندرج فيه نشاطه قد بدأ يتبلور بصفة خاصة منذ ١٩٣٧ ، عندما بدأ ابن باديس يجهر بأنه لا مناص من « المغامرة » في مواجهة الاستعمار .

وكان من قبل ذلك ــ في أفريل من نفس العام ، نشر نص تقرير كان عمه حميدة بن باديس قد رفعه مع ثلاثة نواب آخرين ، الى لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي عام ١٨٩١ ، عن الحالة في الجزائر . نشر عبد الحميد بن باديس هذا التقرير تحت عنوان « بين الماضي والحاضر ــ شكوى الجزائر وبلواها منذ ست وأربعين سنة » وكأنه يريد أن يقول بأنه لا فائدة من

سلوك سياسة المطالب والتقارير ، وراح هذا الخط يتأكد في مواقف ابن باديس ، الذي أكد غير ما مرة منذ ١٩٣٧ أنه لا أمل في الحصول على شيء من فرنسا بطريق المطالب والاتصالات . وقد أكد هذه الفكرة عام ١٩٣٩ عندما طلبت منه الادارة الفرنسية أن يؤيد الحرب ضد المانيا ، فقال « لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله الا الله ما قلتها » .. فذلك أقصر ما يمكن أن يعبر به رجل مثل ابن باديس في شدة تدينه ، عن مقاطعته النهائية للادارة الفرنسية .

فضح المتاجرين باسم الاسلام :

وفعلا فان هذا الرجل الشديد التمسك بالاسلام ، لم تخف عنه أبدا محاولات الاستعمار المتسترة بستار الاسلام ، ولم يتردد في فضح تلك المحاولات ومهاجمتها بشدة . ومن الغريب ان اقوى الهجمات ضد العمائم صدرت من هذا الرجل المعمم .

فقد كتب في ماي ١٩٣٨ مقالا تحت عنوان « الخلافة أم جماعة المسلمين » ، تعرض فيه لمحاولة بعث الخلافة الاسلامية التي حاولها الغرب في ذلك الحين ، جاء فيه ما نصه :

« علمت الدول الغربية المستعمرة ان فتنة المسلمين تكون باسم «خليفة» فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل .

ليس عجيبا من تلك الدول ان تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ومقاصدها بينة . وانما العجب أن يندفع في تيارها المسلمون وعلى رأسهم امراء وعلماء منهم ، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث به في مصر فتردد صداه الصحف في الشرق والغرب وتهتم له صحافة الانكليز على الخصوص . يتحدثون في مصر وفي الازهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعاقل الانكليزية الضاربة في ديارهم ...

كفى غرورا وانخداعا ان الامم الاسلامية اليوم ـ حتى المستعبدة منها ـ اصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائم »
هذا الكلام الذي قاله ابن باديس عام ١٩٣٨ ، ما يزال يحتفظ بقوته ويصلح اليوم للرد على طهاة « الحلف الاسلامي » •

الواقعية السياسية :

أن الطابع العام الذي يطبع تفكير ابن باديس ومواقفه السياسية هو مقاومة الاستعمار بواسطة خطط محكمة تندرج في استراتيجية شمولية من جهة ، وتحكيم النظرة الواقعية العملية في تكييف المراحل التكنيكية من جهة أخرى ••• فهو مثلا ، على الرغم من شديد تعلقه بفكرة الوحدة العربية والحاحه عليها كفكرة يتعين تحقيقها ، يرسم في واقعية مدهشة شروط تحقيق هذه الوحدة ، فيقول في جانفي ١٩٣٨ :

« هذه الامة العربية تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس ورابطة التاريخ ورابطة الالم ورابطة الامل ، فالوحدة الادبية متحققة بينها لا محالة ، ولكن هل بينها وحدة سياسية ؟ » •

ثم يجيب عن هذا التساؤل بقوله :

« الوحدة السياسية لا تكون الا بين شعوب تسوس نفسها ، فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الامم، وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها ، وأما الامم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها ، ولا تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها • وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمد عليها في خارجيتها • فالوحدة السياسية بين هذه الامم أمر غير ممكن ولا معقول • » •

ويستخلص النتيجة من ذلك بالنسبة لكفاح شعوب الشمال الافريقي فيقـول :

« ... من الخـير لها (أي شعوب الشمال الافريقي) ان تعمـل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على مـا يناسبها مـن الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها . ونحـن نعلم ان الواقع في شمالنا الافريقي العربي هو هذا بعينه .. » .

وبنفس الواقعية السياسية والتحليـل الشـاقب يتنـاول (في أوت ١٩٣٨) قضية فلسطين فيقول :

« ... فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها ، ولا بين كل مسلم ويهودي على وجه الأرض ، بل الخصومـة بين الصهيونيـة والاستعمار الانكليزي من جهة والاسلام والعرب من جهة يريد الاستعمار الانكليـزي الغاشم أن يستعمـل الصهيونيـة الشرهـة لقسم الجسم العربي ... » .

هذه الحقيقة السياسية التي ساقها ابن باديس عام ١٩٣٨ ، ما يزال يوجد الى الآن من ينازع فيها من المتتلمذين على الغرب ...

وبعد فهذه ليست دراسة ولا تقييما لفكـر ابن باديس ، ولكنهـا اشارات خاطفة ومقتضبة الى جوانب من فكره ، نسوقها بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لوفاته ، رحمه الله .

والواقع أن النماذج التي سقناها هنا ، اذا كانت تساعد في الكشف عن شخصية ابن باديس وتفكيره ، فانها لا تكفي في الكشف الصريح عن التصلب العقائدي ــ بالمفهوم السياسي ــ الـذي انتهى اليه في أواخـر

حياته ، والتي تكشف عنها كلمتــه « لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله الا الله ما قلتها » .

ويبدو ان ابن باديس في هذه المرحلة من تطور فكره السياسي فضّل أن يعبر عن موقفه السياسي في المجالس ، أكثر مما يعبر عنه في الكتابات .

يروي بعض تلامذته وجلسائه ، انه قــال سنة ١٩٣٦ تعليقــا عن اعلان مطلب الاستقلال من طرف حزب الشعب الجزائري « وهل يمكــن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا مــن عملنــا الا تحقيق الاستقلال [١] » . ويروي أحد مريديه انه التزم : « انيسأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب » .

وقد كان اصحابه يعرفون عنه هذا التصلب ويعرفون تطلعه الــى انهيار قــوة فرنسا ، عسى أن يكون ذلك ثمــة مناسبة تسمــح بتحقيق الآفاق التي كانت تبدو مسدودة . حتى ان أحدهم ، وهو المرحوم أحمد بوشمال ، لم يتردد ، عندما سقطت باريس أمام الهجمة النازية ، (وكــان الشيخ ابن باديس قد توفي منذ بضعة أشهر) في أن يذهب الى قبــره ، ويبشره بسقوط عاصمة الطغيان الاستعماري .

---

(١) عمار طالبي . ابن باديس حياته وآثاره ، ج ١ ، ص ٨٩ .

ابن باديس والمعركة ضدّ التخلّف

أية علاقة يمكن أن توجد بين ابن باديس وبين المعركة ضد التخلف ؟ فعلا قد يبدو غريبا أن يكون ابن باديس قد حاول وضع فلسفة للمعركة ضد التخلف ، وأسارع الى القول بأن المقصود بعبارة الفلسفة هنا ليس هو المفهوم التقليدي والذي يتمثل في وضع صيغ وبناءات نظرية تحاول أن تقدم بمفردها تفسيرا لكل ما يجري في العالم • وليس المقصود بها تلك المحاولات والأفكار المبهمة التي تنطلق من الغيب وتنتهي الى الغيب دون أن تتصل بالحياة أو تترك فيها أثرا •

ولكن المقصود هنا هو مجموعة المحاولات التي يعمد اليها المفكر في احتكاكه بالحياة وتقييمه لاوضاعها المختلفة ، بهدف التأثير في الحياة والمساعدة على تحسين أوضاع الانسان فيها في اطار كل منسجم متوازن•

ونحن اذا استعرضنا انتاج ابن باديس نعثر فيه على خيط دقيق ينتظم كتاباته جميعا ويجعلها تتلاقى في اطار كل واحد منسجم ، هو اطار

(*) نشر في « المجاهد الثقافي » عدد ٧ .

المعركة ضد التخلف ، مما يدفع على الأقل الى طرح هذا السؤال : هل أدرك ابن باديس طبيعة التخلف ، وهل حاول أن يضع فلسفة للمعركة ضد التخلف ؟

أما كون ابن باديس قد أدرك طبيعة التخلف فكتاباته المختلفة ـ التي سوف نستعرض نماذج منها ـ شاهدة بذلك . أما كونه حاول أن يفلسف المعركة ضد التخلف ، فان الجواب عن ذلك بالايجاب لا يستلزم وجود نية مسبقة وخطة جاهزة عنده لذلك ، بل يكفي أن تكون عنده محاولات مختلفة انطلقت كحلول للمشاكل التي اصطدم بها شعبه ويكفي أن تلتقي هذه المحاولات في اطار واحد ، لكي نجيب بالايجاب عن الشطر الثاني من السؤال السابق .

ولست أزعم ان محاولتي هذه تعد اكتشافا لابن باديس بوصفه مفلسفا للمعركة ضد التخلف ولكنها فقط عبارة عن جمع بعض العناصر التي تسمح بطرح السؤال . والذي دفعني الى طرح هذا السؤال والتفكير في جمع بعض العناصر المساعدة على الاجابة عنه بالايجاب ، هو ما لاحظته من ترابط تفكير ابن باديس وانسجامه وعقلانيته في مجالات متعددة ، وتوفيقه في صياغة مشاكل عصره من جهة ، ومن جهة أخرى ذلك الحرص الدائم على معالجة ظاهرة التخلف التي مكنت الاستعمار من بلادنا واجتهاده في تقديم الحلول التي يراها لازمة للقضاء على ظاهرة التخلف التي لا محيد عنه للتخلص من الاستعمار .

أي ان ابن باديس لم يهتم بالاستعمار كظاهرة سياسية منفصلة عما يحيط بها من ظروف اجتماعية ومعطيات اقتصادية ومناخ فكري . ولو فعل ذلك لكان سياسيا محترفا أو مناضلا وطنيا وكفى ... لكنه أبى الا

أن يربط المعركة ضد الاستعمار بالمعركة ضد التخلف ، لانه كان ينظر الى الاستعمار بعين الفيلسوف وليس بعين السياسي المحترف .

وهذا هو السبب الذي يجعل فلسفة ابن باديس للمعركة ضد التخلف ، لا تظهر بوضوح لان الجانب العملي فيها يختلط بالجانب النظري ولان نشاطاته في ميادين الاصلاح الديني والاجتماعي متداخلة مع كتاباته ذات الطابع الفكري ، بحيث يتطلب الأمر القيام بدراسة معمقة لفصل الجانبين من جهة ، ولاستخراج الخطوط الرئيسية في تفكير ابن باديس من جهة ثانية .

وعلى الرغم من أن المحاولة التي أقدمها اليوم هنا محدودة جدا ، ولا تسمح بالوصول الى جواب شاف ، فبامكاني أن أؤكد بأن هناك عوامل معينة هي التي حدت ابن باديس الى الاهتمام بظاهرة التخلف ومعالجتها . ويمكن تصنيف تلك العوامل الى صنفين :

الصنف الأول : يتمثل في العوامل المتصلة بنشأة ابن باديس والوسط العائلي الذي كبر فيه ، والمحيط الذي تناول فيه دراسته ، وأخيرا اصطدامه بالاستعمار .

والصنف الثاني : يتمثل في العوامل المتصلة بالطابع المميز لتفكير ابن باديس .

فالطابع الأشد بروزا في تفكير ابن باديس هو الطابع العقلاني ، لكن عقلانيته ليست عقلانية ملحدة متحررة من كل قيد مثل العقلانية التي انبثقت عن الفردية التي ولدتها فلسفة الهومانيزم في عصر الانبعاث الاوروبي . كما ان عقلانيته ليست عقلانية مادية صرفة مثل العقلانية الجديدة التي ولدتها الماركسية ، ولكنها عقلانية ملتزمة بالاسلام وبحدوده .

علــى أن التزام ابن باديس بالاسلام يقف عند حــدود الجــانب الروحي النفساني منه • أي ان عقلانية ابن باديس الاسلامية تختلف عــن عقلانية ذلك النموذج من الكتاب المسلمين الذين يحاولــون ان يجــدوا لكل اكتشاف في الدنيا أصلا في القرآن أو في الحديث • فعقلانيــة ابن باديس عقلانية معتدلة ان صح هذا التعبير ، لا تتخوف من الذهاب مــع العقل الى أبعد الحدود في المجالات الدنيوية ، ولا تحــاول أن تتمرد على أساس الدين وجوهره ، لكنها لا تتردد في استعمال العقل وتحكيمه كلمــا أحست بوجود انحراف خطير يستتر وراء الدين ويستعمل اسم الاسلام •

وهذا الطابع العقلاني الاسلامي الذي يطبع تفكير ابن باديس ، لم يكن مجرد صدفة • فكما اننا نجد تفكيره السياسي متصلا أوثق اتصــال بالظروف التي كانت تعيشها الجزائر فيما بين الحــربين العالميتين ، فكذلك نجد مجموع تفكيره متصلا بمجموع الظروف التي أحاطت بالعالم العربي والاسلامي منذ مطالع العصور الحديثة حتى قيام الحرب العالمية الثانية •

فابن باديس بوصفه ينتمي الى قبيلة صنهاجة ذات المجد العريــق ، كان مهتما بالاطلاع على تاريخ المغرب العــربي ، وكان حريصا على تبين الأسباب التي أدت الى تدهوره وفتح الطريق أمام الاستعمار •

ولسنا نشك في أن ابن باديس لم يفته أن يلاحظ بدء عصور الانحطاط في المغرب العربي وفي الشرق العربي على السواء ، مع سيطرة الاوروبيين على مسالك التجارة العالمية ، وتخريب البرتغــاليين للموانىء العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقي من موزمبيق حتى خليج عدن •

كما اننا لا نشك في أن ابن باديس قد لاحظ في نفس الوقت ارتباط هذا الهجوم الاوروبي برد الفعل المسيحي ضد الاسلام : فلم يكن مــن محض الصدفة أن يتم هذا الهجوم على يد البرتغاليين بعــد التخلص من

سيادة الاسلام الاندلسي ، كما لم يغب عليه ان يلاحظ تدفّق البرتغاليين من سبته الى السنغال الى جزر الرأس الاخضر الى أن تمكنوا من القضاء على الاسطول العربي في المشرق مع مطلع القرن السادس عشرة في نفس الوقت الذي لاحظ فيه الارتباط الموجود بين هذه الانتصارات البرتغالية وبين عوامل الضعف الداخلية التي كانت تنخر جسم الأمة العربيةالاسلامية من جهة ، وبعوامل فنية اقتصادية من جهة أخرى . وفعلا فان بعض كتابات ابن باديس تشعر انه أدرك ترابط اجزاء العالم العربي ، وانه لاحظ ان تدهور جناحه المغربي قد تم في نفس الوقت تقريبا الذي بدأ فيه جناحه المشرقي يسير نحو الانحطاط : فالانتصار البرتغالي على الاسطول العربي قد قطع عن المشرق العربي طريق التوابل التي كانت تمثل عملة صعبة أساسية ، كما قطع الاستيلاء ، البرتغالي على شواطىء افريقيا الغربية ، طريق الذهب عن المغرب العربي .

وهذا هو السر في أننا نجد ابن باديس يولي عناية خاصة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية في تفسير رقي الدول وانحطاطها ، كما يبدو ذلك واضحا في محاضرته القيمة « العرب في القرآن » . وذلك هو نفسه الذي يفسر وجود نظرة عربية وحدوية عند ابن باديس ، اذ كان يحرص دائما على تناول القضايا من زاوية الوحدة نظريا ، مع اعتبار واقعي للظروف المحلية في مجال التطبيق وطرائقه وقد يبدو من الغريب أن يحتل « الوطن العربي » مكان الصدارة في اهتمامات ابن باديس بدل « الوطن الاسلامي » خصوصا وهو عالم ديني . لكن ذلك هو الواقع كما سنتبين بعد حين . ويبدو ان هذا الموقف الذي انتهى اليه ابن باديس كان نتيجة تحليل نقدي للتاريخ العربي والاسلامي . لان الذي يستعرض كتابات ابن باديس يجد ان الاهتمام بالتاريخ يندرج عنده في اطار مزدوج : بعث الشخصية الوطنية ، والاستعانة على توفير الشروط لخوض المعركة ضد التخلف .

فهو لا يهتم بالتاريخ بوصفه تجربة يمكن أن تعاش من جديد كما عاشتها الأجيال السابقة ، ولذلك لا ينظر الى التـراث العربي ـ الاسلامي تلك النظرة التقديسية الهيامية التي نجدها عند كثير من علماء الدين ، بل انه ينظر اليه نظرة نقدية علمية ، فيؤكد في مقال نشره عام ١٩٣٠ أن الوطنـي الصميم يجب أن ينظر الى ماضيه نظرة فاحصة تميز ما فيـه من ايجـاب وتسجل ما يشتمل عليه من جوانب سلبية .

بل انه لا يتردد في تسجيل الجوانب السلبية فيما يسميه بـ «الاسلام الوراثي » أي الاسلام بوصفه تجربة تاريخية لا يمكن فصل نظرياتها عن واقعها ، فيقول :

« الاسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم ، لان الأمم لا تنهض الا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها ، والاسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر » .

مع ان ابن باديس نفسه لا يغفل عن الجوانب الايجابية التي حققها الاسلام الوراثي ، فهو يسجـل ان « الاسلام الوراثي حفـظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به وخصوصا العربية منها شخصيتهـا ولغتها وشيئـا كثيرا من الاخلاق ترجح به » .

فابن باديس ، بالاضافة الى هذا الفـرز بين الجـوانب الايجابيـة والجـوانب السلبيـة في تقييـم التراث لا ينظـر الى المـاضي بعـين السلفي الغيبي الذي لا يرى المثل الأعلى الا في الماضي ، ولكنه ينظر اليه بعين الفيلسوف الذي يريد الاستعانة بجوانبه الايجـابية على خـوض معركة المستقبل فمنطلقه هو المستقبل وليس الماضي . فبهذه النظرة تولى تقييم تاريخ الجزائر . وتاريخ العرب . فالتاريخ أو الماضي عنده عبارة عن

محاولة اعداد للمستقبل •• الماضي عنده ليس موضوع تمجيد وهيـام ، ولـكنه موضوع نقد وتأويل واستنتاج وتكهن •

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكـد ان ابن باديس ينتمي حقـا بعقلانيته هذه الى القرن العشرين وقد يبدو ذلـك غريبا من شخص ذي ثقافة تقليدية غير مطعمة بأية ثقافة حديثة •

الجواب عن ذلك يكمن في انتماء ابن باديس الى وسط محتك بالتيار الثقافي الغربي ، مما جعله يلاحظ عن كثب بعض العوامل التي كانت أساس تفوق الغرب •

فعقلانية ابن باديس متولـدة عن ذلك الاصطدام بقـوة الغـرب وتفوقه ، مما جعله لا يتردد في الدعوة الى الأخذ بأساليب التقدم الغربي• ولما لم يكن في أمكان ابن باديس وهو ذو الثقافة الاسلاميـة التقليدية أن يتصور بأن الاسلام هـو مصدر الضعف ، ولا يستطيع في نفس الـوقت وللسبب ذاته أن يتصور بأن الحضارة الغربية أسمى روحا ، فقد وجـد نفسه مدعوا الى تحقيق نوع من التزاوج بين العقلانية والاسلام : وقـد عزز عنده هذا الاتجاه ، التأثير المبـاشر لشخصيتين درس عليهمـا همـا المؤرخ والمفكر البشير صفر ، الذي عزز عنده ملكـة النقد التاريخـي ، والمصلح الديني محمد النخلي الذي غرس عنده بذور التخلص من تقديس كل ما هو قديم •

فهذا التوازن الذي نجده عند ابن باديس بين العقلانية والاسلام ، لم يكن وليد الظروف التاريخية التي استقرأها فقط ، ولكنه كان أيضـا وليد تأثير مزدوج في ثقافته يرجع الى فترة دراسته بتونس : تأثير التيار العصري التاريخي مثلا في البشير صفر ، وتأثير التيار الاسلامي التقليدي

ـ الاصلاحي ممثلا في الشيخ النخلي • وقد تعاظم هذا التأثير بعد ذلك بكتابات الافغاني والكواكبي ومحمد عبده وشكيب أرسلان •

وهذا هو السبب في ان ابن باديس كان ـ في تفكيره ـ نموذجا أصيلا يجمع الى العقلانية المتحررة ، الايمان بالقيم الاسلامية • فقد كان من الممكن أن يؤدي اعجاب ابن باديس بالتفوق الغربي الى الارتماء الكلي في أحضان الغرب • لكن ثقافته التقليدية من جهة واعتزازه بتاريخ صنهاجة الذي يعتبره جزءا لا يتجزأ من التاريخ العربي الاسلامي من جهة ثانية ، وعمق الشعور الديني عنده من جهة ثالثة ، كل ذلك جعله لا يتصور الخلاص من التبعية والتخلف بعيدا عن القيم الحضارية العربية ـ الاسلامية •

ومن ناحية أخرى كان من الممكن أن تدفعه ثقافته التقليدية وقراءاته الدينية الى أن يكون رجل دين منغلق : ضيق الأفق ، غبي التفكير ، طقوسي السلوك ، يتوجه الى السماء في كل وقت ، دون أن يعتمد على الأرض في أية لحظة . لكن ثقافته التاريخية واحتكاكه بالغرب ، والملكة النقدية حالت دون هذا الاتجاه الذي كان سيفضي به الى مأزق •

ذلك هو فيما أعتقد المفتاح الذي يمكننا من فهم هذا النوع الخاص من العقلانية الذي نجده في تفكير ابن باديس ، وهو نفسه الذي يفسر ذلك الانسجام في تفكيره بين ضرورات المحلية ومطالب العالمية •

على ان العالمية عند ابن باديس لا تتمثل في الأخذ بهومانيزم مائع ، أو بمذهب محدد ، ولكنها تتمثل في الايمان بالاسلام : فالاسلام عنده يوازي العالمية ، لا بوصفه دينا يجب أن يأخذ به جميع الناس ، ولكن بوصفه يسع جميع الأجناس والمعتقدات دون اكراه •

* * *

ولقد تكلمنا حتى الآن عن الطابع المميز لتفكير ابن باديس : وعما

يمكن أن يسمى مفتاح فلسفته في المعركـة ضد التخلف ، والآن يجب أن نستعرض نماذج من هذا التفكير حتى تتضح لنا الفكرة التي يحاول رسمها ابن باديس في هذا المجال .

ان من بين العوامل التي تدفع الى الاعتقاد بأن لابن باديس فلسفـة متكاملة ، هو ارتباط تفكيره السياسي مع تفكيره الانساني ، وارتباط هذين مع تفكيره الاصلاحي ـ الديني ، وارتباط الجميع مع الخطة التي يراها صالحة للخروج مـن التخلف ، وبالتالي لتحقيـق مواجهة ناجحـة للاستعمـار .

فابن باديس المفكر الوطني مثلا ، اذ يدافع عن الشخصية الوطنيـة الجزائرية ، ويسهم مساهمة ايجابية في وضع لبناتها الحديثة، لا يفعل ذلك في اطار ضيق منفصل عن الميدان الاصلاحي والميدان الانساني . كما أنه يحرص دائما على تحقيق التوازن بين المحلية والعالمية سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة .

فهو يقول مثلا في تحديد منازل الوطنية ودرجاتها ما يلي : لا يعرف « ولا يحب الوطن الأكبر الا من عرف وأحب الوطن الكبير ، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير الا من عرف وأحب الوطـن الصغير » . وهـو يقصد بالوطن الصغير البيت ، وبالوطن الكبير الأمة ، وبالوطـن الأكبـر مجموع الانسانية .

وبعد ذلك يقسم الناس ازاء هذه « الاصناف الثلاث من الاوطان على أربعة أقسام » ، فيؤكد ان الناس ازاء هذه الحقيقة أربعة أقسام :

« قسم لا يعرفون الا أوطانهم الصغيرة ، وهؤلاء الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيـوان . وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لاقاربهم وأهل بيتهم .

و « قسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ، ولو بادخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى ، بل يعملون دائما على امتصاص دماء الامم والتوسع في الملك لا تردهم الا القوة وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم ، بل وعلى أممهم في مصيبة البشرية جمعاء .

« وقسم زعموا انهم لا يعرفون الا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم — كما أنكروا أديانها — وعدوها مفرقة بين البشر . وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين . ودلائل الفشل على تجربتهم ، حيث أجروا تجربتهم ، لا تخفى .

« وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها وأنزلها منازل غير عادية ولا معدو عليها ، ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها ، كل واحدة منها مبنية على ما قبلها ، ودعامة لما بعدها . وآمن — هذا القسم — بأن الانسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيئة وطنه الصغير ، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير ، ويجدها في الانسانية كلها وطنه الأكبر » .

ثم يعقب على ذلك بقوله : « وهذا الرابع هو الوطنية الاسلامية العادلة ، اذ هي التي تحافظ على الاسرة بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتحترم الانسانية في جميع أجناسها وأديانها .. » .

وهنا يجب أن نتفطن الى أن ابن باديس يجعل البعد الاسلامي مرادفا للبعد الانساني . فهو اذ يتحدث عن « الوطنية الاسلامية » لا يقصد بذلك الى قيام وطن اسلامي موحد بين جميع البلدان التي تدين بالاسلام، لانه أكثر واقعية من أن يذهب هذا المذهب الخيالي الطفولي ، ولكنه يقصد بذلك معنى مرادفا للهومانيزم الذي يسع الانسانية جمعاء . فما

يسميه ابن باديس وطنية اسلامية ليس تعصبا دينيا ، وليس دعوة الى الانغلاق بين البلدان التي تدين بالاسلام ، ولكنه تأكيد لانسانية الاسلام لانه يحترم « الانسانية في جميع أجناسها وأديانها » .

وليس هذا تأويلا مفتعلا يهدف الى تحميل ابن باديس ما لا يتحمله كلامه . ولكنه تفسير يعتمد على كلام ابن باديس نفسه . فهو في الفقرة السابقة يقدم لنا مراتب الوطنية رأسيا ، أي من حيث تناولها للانسان في أسرته ثم في أمته ثم في العالم .

لكنه عندما يتحدث عن مراتب الوطنية ، من حيث وضعها الجغرافي، أي باعتبار مناطق ترابية ، يقدم تحديدا أفقيا واضحا للوطن ينسجم مع التحديد السابق ويفسره ويكمله في نفس الوقت ، فهو يقول :

« ... نعم ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا، هي دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص ، نعتقد اننا لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا اليها النفع والخير عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص . وأقرب هذه الأوطان الينا هو المغرب الأقصى والمغرب الادنى اللذان ما هما والمغرب الاوسط الا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة ، ثم الوطن العربي الاسلامي ثم وطن الانسانية العام ».

فابن باديس في هذا النص يفسر ما يعنيه بالوطنية الاسلامية ، فهو لا يتحدث عن الوطن الاسلامي الذي نجده عند كثير من علماء الدين ، ولكنه يتحدث عن وطن عربي ـ اسلامي ومعنى ذلك أنه لا يعتبر الاسلام مرادفا للقومية ولكنه يعتبره ـ من حيث علاقته بالوطن ، عنصرا أساسيا في تكوين الوطن الجزائري أو الوطن المغربي ، أو الوطن العربي، كما يعتبر الاسلام حيث علاقته بالانسانية نوعا من الهومانيزم الذي يتميز بالسعة والحرية ويقبل التعدد والتنوع ويرفض التعصب والتعنت .

واذا انتقلنا الى ميدان الاصلاح الديني نجد نفس التنافس والانسجام والعقلانية والحرص على البناء ، فهو لا يعتبر الاصلاح الديني مجرد محاولة باطنية لتقويم العقيدة بهدف طلب الآخرة فقط دون أن تكون له علاقة بالدنيا كما انه لا ينظر الى القضايا الدينية نظرة منفصلة عن قضايا الدنيا وملابسات الحياة ولذلك نجده يكتب في ١٩٣٣ مقالا بعنوان : « طلب الآخرة وحدها مذموم » .

ونجده في مقال آخر يرسم بوضوح دور الاصلاح الديني وعلاقته بالحياة ، فيهاجم كل ممعن في الرجعية لانه في « غيبوبة مستمرة » كما يهاجم كل طفرة تريد أن تتخلص من الماضي دفعة واحدة لان مثل هذا الموقف يهدم أضعاف ما يبني .

وهو يعطي هذا المفهوم البناء للاصلاح الديني لانه ينظر دائما الى التخلف بوصفه علة العلل لكل المصائب التي حاقت بالمغرب العربي ومجموع الوطن العربي . وهذه النظرة المنطاقة من واقع التخلف ، تلازم ابن باديس في كتاباته الدينية مهما كانت القضية التي يتناولها . فعندما دعا بعض علماء المسلمين عام ١٩٣٨ الى تجديد منصب الخلافة الاسلامية لم يتردد ابن باديس في أن يتخذ في هذه القضية موقفا واضحا ينطلق من تلك النظرة النقدية التي تتبين عوامل التخلف حتى وسط الأقنعة الدينية . فهو يهاجم :

أولا : المظهر التقديسي الذي اكتسته الخلافة ويؤكد ان الاتراك يوم الغوا الخلافة :

« انما الغوا نظاما حكوميا خاصا بهم ، وأزالوا رمزا خياليا فتن به المسلمون لغير جدوى » .

ثم يكشف الأيدي الأجنبية التي تحرك شعار الخلافة في الخفاء ، فيقول :

« ... ليس عجيبا من تلك الدول أن تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ، ومقاصدها بينة . وانما العجب أن يندفع في تيارها المسلمون وعلى رأسهم أمراء وعلماء منهم ، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث به في مصر فتردد صداه الصحف في الشرق والغرب ، وتهتم له صحافة الانكليز على الخصوص . يتحدثون في مصر وفي الأزهر عن الخلافة .. كأنهم لا يرون المعاقل الانجليزية الضاربة في ديارهم » .

بل انه يذهب ــ في نفس المقال ــ الى أبعد من ذلك . فيضرب مرة واحدة على المتاجرين باسم الاسلام ، فيؤكد ان المسلمين لهم :

« ناحيتان : ناحية سياسية دولية ، وناحية أدبية اجتماعية . فأما الناحية السياسية الدولية ، فهذه من شأن أممهم المستقلة » .

أي ان ابن باديس يجعل الشعب المستقل هو صاحب الرأي فيما يتصل بالنظام الذي يريده ، وانه لا يجوز لأحد ، ولو كان معمما ، أن يستغل الدين في هذا المجال . ويختم هذا المقال بتأكيده على أن خيال الخلافة لن يتحقق أبدا .

هذه الواقعية والعقلانية في تحليل الحوادث وهذا التفتح في تناول القضايا المتصلة بالدين هي نفسها التي نجدها أساس موقفه من كمال أتاتورك . فقد كتب مقالا ، بمناسبة وفاته في عام ١٩٣٨ ، تعرض فيها لموقف كمال أتاتورك من الاسلام . وهو هنا أيضا لم يتخذ موقف علماء الدين التقليديين الذين أدانوا كل عمل أتاتورك ، بل انه وقف موقف الناقد المحلل الذي يعتمد الواقع منطلقا ويتخذ العقلانية منهجا ، ويلاحظ عوامل التخلف حيثما كانت ولا يتردد ابن باديس في القاء المسؤولية ، بهذا الصدد على علماء الدين الذين « كانوا يمثلون الاسلام ، وينطقون باسمه ، ويتولون أمر الناس بنفوذه ، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به » .

ثم يقول موضحا لمسؤولية علماء الـدين الاسلامي في دفع كمـال أتاتورك الى التغريب :

« هؤلاء (المسؤولون) هم خليفة المسلمين (و) شيخ اسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين . (و) شيوخ الطرق المتصوفون .

أما خليفة المسلمين، فيجلس في قصره ، تحت سلطة الانكليز المحتلين لعاصمته ساكنـا . استغفـر الله . بـل متحركا فـي أيديهم تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالاناضول ، ناطقا باعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه من الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين .

وأما شيخ الاسلام وعلماؤه فيكتبون للخليفة منشورا يمضيه باسمه، ويوزع على الناس باذنه . وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه ، يبيح فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانته ويضمن السعادة لمن يقتله .

وأما شيوخ الطرق الضالون ، وأتباعهم المؤمنون فقد كانوا أعوانـا للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم ، يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين » .

ثم يعقب ابن باديس على ذلك بقوله :

« فأين هو الاسلام من هـذه « الكليشيات » كلها ؟ وأيـن يبصره مصطفى الثائر المحروب والمجاهد الموتور ؟

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة جارفة ، ولكنه لـم يثـر على الاسلام ، وانما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين [1] » .

---

(١) نشر المقال المذكور عن اتاتورك في عدد الشهاب الصادر بتاريـخ نوفمبر ١٩٣٨ .

وهكذا نتبين ان الاسلام عند ابن باديس أبعد ما يكون عن القوالب الجامدة التي يتقوقع فيها الانسان ، فردا أو جماعة ، وأن نظرته الى القضايا الدينية ، ما تنفك مرتبطة بالحياة ومطالب التقدم والرقي ، وأنه يحارب جميع مظاهر التخلف مهما كان الطابع الذي تكتسبه . ذلك أن دعوته الى الاصلاح الديني تندرج في اطار خطة عامة تهدف الى التخلص من التبعية للاجنبي ، والى القضاء على عوامل التخلف .

وفي الآن نفسه يكشف ابن باديس في المقال الذي كتبه بمناسبة وفاة مصطفى كمال ، عن نفس سياسي واضح فهو يقول مثلا في بداية المقال :

« في السابع عشر من رمضان المعظم ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث ، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق ، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب ، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقا جديدا ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الاناضول وباعث تركيا من شبه الموت الى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو .

واذا قلنا بطل غاليبولي فقد قلنا قاهر الانكليز أعظم دولة بحرية الذي هزمها في الحرب الكبرى بشر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل واذا قلنا بطل سقاريا فقد قلنا قاهر الانجليز وحلفائهم من اليونان وطليان وافرنسيين بعد الحرب الكبرى ومجليهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والتهام أطرافها وشواطئها .

واذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الاسلامي كله فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم الاسلامي في قرون عديدة هي منزلتها فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطا ببعثها . لقد كانت تركيا قبل الحرب

الكبرى هي جبهة صراع الشرق ازاء هجمات الغرب ومرمى قذائف الشر الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب • فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهشمة مفككة تناولت الدول الغربية أمم الشرق الاسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية مطلقة ، واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها • وقال المارشال اللنبي ـ وقد دخل القدس ـ (اليوم انتهت الحروب الصليبية) فلو لم يخلق الله المعجزة على يد كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الاسلامي معها ، لكن كمالا الذي جمع تلك الفلول المبعثرة فالتف به اخوانه من أبناء تركيا البررة • ونفح من روحه في أرض الاناضول حيث الأرومة التركية الكريمة وحيث ذلك الشعب النبيل الذي قاوم ذلك الخليفة الأسير وحكومته المتداعية ، وشيوخه الدجالين من الداخل ، وقهر دول الغرب وفي مقدمتها انجلترا من الخارج ، لكن كمالا هذا أوقف الغرب المعبر عند حده وكبح من جماحه وكسر من غلوائه ، وبعث في الشرق الاسلامي أمله وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد » •

ثم يقول معقبا على موقف علماء الدين من كمال أتاتورك :

« لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة ولكنه لم يثر على الاسلام وانما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين • فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم فرفض مجلة الأحكام واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها وقال للأمم الاسلامية عليكم أنفسكم وعلي نفسي ، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه ، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان •

أما الاسلام فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها لتأخذ الاسلام من معدنه ، وتستقيه من نبعه • ومكنها من اقامة شعائره فكانت مظاهر

الاسلام في مساجده ومواسمه تتزايد في الظهور عاما بعد عام حتى كان المظهر الاسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه تغمده برحمته .

لسنا نبرر صنيعه في رفض مجلة الأحكام ولكننا نريد أن يذكر الناس ان تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ما كانت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر لان الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الاسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائنا ما كان وكائنة ما كانت ؛ ونريد أن يذكر الناس أيضا أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسعوا غير ما يعرفون من صغرهم من مذهبهم وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك. كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت الى اليوم الأحكام الشرعية ــ غير الشخصية ــ معطلة فيها ــ وما زال (كود) نابليون مصدر أحكامها الى اليوم . وما زال الانتفاع بالمذاهب الاسلامية في القضاء ــ غير المذهب الحنفي ــ مهجورا كذلك الا قليلا جدا .

نعم ... ان مصطفى أتاتورك نزع عن الاتراك الأحكام الشرعية وليس مسؤولا في ذلك وحده وفي امكانهم ان يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا ولكنه رجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض . وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع ، وهو وحده كان مبعثه ومصدره . ثم اخوانه المخلصون . فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية الى (كود) نابليون فماذا أعطوا أمتهم ؟ وماذا قال علماؤهم ؟ » [1] .

لقد أدرك ابن باديس ، منذ الثلاثينات ، عوامل التخلف ، وتنبه

---

(1) الشهاب ، ج ٩ ، غرة رمضان ١٣٥٧ ، نوفمبر ١٩٣٨ .

الى طبيعتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وعمل جاهدا على لفت النظر اليها •

فقد كتب في مارس ١٩٣١ مقالا يهاجم فيه تراخي الطبقةالبورجوازية عن أداء دورها الاقتصادي والثقافي • وعلى الرغم من أن ثقافة ابن باديس كانت ثقافة تقليدية وعلى الرغم من أنه لم يقرأ في أغلب الظن عن البورجوازية الاوروبية الشيء الهام ، فانه قد لاحظ بثاقب نظره الدور الذي تستطيع أن تلعبه البورجوازية الوطنية في القضاء على التخلف • فهو يقول :

« ان المامة وجيزة بسلك أسرنا الثرية ، تبين مقدار زهد أبناءها في العالم والمعرفة ومقدار ما نجم عن ذلك من الآثار السيئة » •

وهذا المقال الذي كتب عام ١٩٣١ يعدد الآثار الوخيمة التي تترتب عن استقالة الطبقة البورجوازية عن أداء وظيفتها الاقتصادية والثقافية ، ويرى أن ذلك من شأنه أن يؤثر في الوحدة الوطنية نفسها •

وهو اذ يسجل هذه الملاحظة ، لا يريد في الواقع أن يسبق الى تقرير حقيقة تحدث عنها باسهاب — بعد ذلك — كثير من الدارسين لشؤون البلاد المتخلفة • فهناك عدة دراسات اقتصادية حديثة تلاحظ الفرق بين الدور الايجابي الذي قامت به الطبقة البورجوازية في أوروبا وبين الدور السلبي الذي قامت به الطبقة البورجوازية فيالبلدانالمتخلفة : وفي شهر جويليه من عام ١٩٣١ ، نشر مقالا بعنوان : « الى متى ونحن راضون بالموجود وفي غنى عن علوم الحياة » •

ويشتمل هذا المقال على دعوة صريحة موجهة الى الأسر الغنية كي تعتني بعلوم الحياة وتهتم بالنشاطات الاقتصادية على أساس علمي •

لكن الكاتب لا يفوته ان يلاحظ استقالة هذه الطبقة عنأداء دورها،

وأن المعركة ضد التخلف لا يمكن أن يعتمد فيها على الطبقة ، كما لا يمكن أن يعتمد فيها على الادارة الفرنسية ، لذلك يسارع باستخلاص العبرة ، ويدعو الشعب الى الاعتماد على نفسه وأن يخوض غمار هذه المعركة بكل قواه ، وعدم انتظار أي شيء من الادارة الفرنسية • ويلح في هذا المقال على ضرورة الاستفادة من علوم الغرب « التي نحن خلو منها رغم احتكاكنا بالغرب » • حسب تعبيره • ويسجل في هذا المجال مدى الاستعداد الموجود عند الشعب للنهل من حياض العلم الحديث • ويدعو الى توفير الفرص لابناء الشعب بواسطة مجهودات شعبية تتولى توجيه بعثة من التلاميذ النجباء كل سنة الى جامعات فرنسا العلمية الصناعية »•

ومعنى ذلك ان توجيه هذه البعثات يستلزم وجود تعليم حر يموله الشعب ، ويسهر على تعليم الفرنسية الى جانب العربية واذا كان معروفا عن ابن باديس أنه يحرص على أن يتولى التعليم الحر نشر اللغة العربية ، أفلا يكون هناك تناقض بين هدف التعليم الحر في نشر العربية وبين الدعوة الى توجيه البعثات الى جامعات فرنسا العلمية والصناعية ؟

الجواب انه لا يوجد أدنى تناقض • لسبب بسيط هو أن الطابع العقلاني في تفكير ابن باديس كان قد دفعه الى تحديد مهام التعليم الحر بما يتناسب مع هذه الدعوة الى الاستفادة لجمعية التربية والتعليم ، على تعليم الفرنسية في هذه المدرسة • وقد سبق للشهاب ، قبل صدور المقال السابق الذكر ، بأكثر من سنة أن نشر مقالا مع مطلع عام ١٩٣٠ يحدد طبيعة ومهام التعليم الحر ، ويلح على ضرورة اشتمال التعليم الحر على كل من العربية والفرنسية • فتعليم العربية ونشرها ضروري : « لمقاومة الاخطار التي أوشكت أن تكتسح اللغة العربية » • كما ان تعلم اللغة الفرنسية « حتى لا تخمد عاطفة اللهفة على الفرنسية » وعلى هذا

الأساس يرى أن المدارس الحرة يجب أن تعمل لاحياء الاولى ـ أي العربية ـ والسمو بالثانية ـ أي الفرنسية ـ « الى قمتها » .

فهو هنا صريح في الدعوة الى تعلم العربية بهدف احيائها لاستكمال مقومات الشخصية الوطنية مثلما هو صريح في الدعوة الى تعلم الفرنسية بهدف الاستعانة بها على امتلاك ناصية التكنيك والعلوم التي يقوم عليها الاقتصاد الحديث ، والتي تمكن البلاد المتخلفة من تحقيق القفزة من العصور الوسطى الى العصر الحديث . فالفرنسية التي يريدها ليست هي الفرنسية التي تقف بصاحبها عند عقبة الوظائف الثانوية ، التي تجعل الجزائر مجرد تابع دليل يلتقط فتات الاسياد ، ولكنها الفرنسية التي تمكن من الأخذ بزمام التطور الحقيقي ، وهذا هو ما يعنيه ـ في رأيي ـ بقوله « والسمو بها الى غايتها » .

وفي هذا المقال تحذير شديد من خطر الانزواء والتقوقع ، اذ يقول بعد ذلك مباشرة : « واذا من علوم الغرب . فقد نص في القانون الاساسي استصغرنا الخطب ، وعكفنا على هذا القبوع والانزواء والفشل ، قضينا على مقدراتنا بأيدينا وتسببنا في السقوط الى هوة عميقة ... وكان منتهانا الفناء بعد خمسين سنة ... وان عد أحد كلمتنا (هذه نظرية ... فنحن نعدها حقيقة واقعية أو نبؤة صحيحة . واذا تعذر تصديقها اليوم فسيصدقها المستقبل . وحسبنا ... ان يعجب بـ (هذه) الفراسة أو النبؤة أبناء الجيل الذي سيعيش بعد خمسين سنة عند تصفحه هذا الأثر في هذه المجلة » .

ان موقف ابن باديس هذا من ضرورة تعلم الفرنسية لامتلاك ناحية التكتيك ، ينطلق بالضبط من منطلق المستقبل ، أي المنطلق الذي يريد تطوير الوضعية التي هو فيها وبها الى ما يؤديه الى الخروج منها . وابن باديس ، في هذا الموقف لا يزيد على أن يقرر حقيقة أثبتتها التجربة ، وهي

ان الشعب أو الشخص الذي لا يعمل على تحويل الوضعية التي هو فيها لفائدته ، يعيش على هامش التاريخ ولا يستطيع أن يكون له دور فعال في الحياة •

وهكذا تتبين ان ابن باديس أبعد ما يكون عن الغيبيين وانه عقلاني، وان عقلانيته هذه هي التي ساعدته الى الاهتداء الى عوامل التخلف ، والتفكير في علاجها •

وذلك هو ما ساعده الى التفطن للجوانب الايجابية الموجودة في الفكر الغربي • فقد جاء في مقال له عام ١٩٣٨ هاجم فيه الاستعمار الايطالي بعنف ، ثم لاحظ قائلا :

« اننا نفرق جيدا بين الروح الانسانية والروح الاستعمارية في كل أمة • فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها ، نوالي تلك ونؤيدها ، لاننا نتيقن ان كل بلاء العالم هو من هذه، وكل خير يرجى للبشرية انما سيكون يوم تسود تلك فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر . ولترتفع الروح الانسانية ولتنتشر » •

وهذا التفطن منه الى الجوانب الايجابية . مثل ذلك الحرص الشديد عنده الى البناء هو الذي جعله يرفض تحديد المواقف بالسلب • فهو يلح في كل مناسبة على طابع الايجابية في الشخصية الوطنية ويرفض كل تحديد بالسلب لان السلب يتنافى مع البناء ويبحث دائما عن التعاون والاستفادة الا حيث لا مناص من الاصطدام والمعركة فيقول مثلا :

« نهضتنا نهضة بنيت على الدين أركانا فكانت سلاما على البشرية لا يخشاها والله النصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، ولا

المجوسي لمجوسيته ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته » •

والواقع ان الشواهد على ذكر ذلك غير مـا ذكرنا من كـلام ابن باديس عديدة ، لكننا نكتفي بهذا القدر لنختم الموضوع بمحاولة خاطفة لتقييم تفكير ابن باديس ، وتصنيفه بين الاتجاهات الكبرى المحركةللتاريخ الحضاري • يحلل المؤرخ والفيلسوف المعـروف أرنولـد توينبي ردود الفعل التي يتخذها مجتمع متمدن عندما يغلب على أمره من طرف عـدو يفوقه فكرا أو ثقافة وتقنية فيصنفها الى صنفين : أ ـ صنف الرجعـي الذي يلجأ الى المألوف هروبا من المجهول ويلجأ الى فنه التقليدي فيالقتال لمحاربة عدوه المتفوق عليه بالسلاح وهذا النوع يسميه توينبيبالزيلوتي• فالزيلوتية هيحسبتعبير توينبي حركةرجعيةيثيرها ضغط خارجيويمثلها في البلاد العربية الوهابيون والسنوسيون في أول عهدهم • ب ـ الصنف الثاني هو الذي يتصرف على أساس ان أفضل طريق لاتقاء خطر المجهول هو في السيطرة على سر المجهول ، أي سر العدو ، وهذا الصنف يسميـه توينبي بالهيرودوي . فالهيرودية تتطلب اطراح الفن التقليدي والتـدرب على خطط العدو ويرى توينبي ان الهيرودية في البـلاد الاسلامية تمثلهـا حركة محمد علي في مصر ، وكمال أتاتورك في تركيا • ويعتقد توينبي ان الهيرودية هي أحسن رد على تحدي الغرب ، لان الهيرودي يواجه الحاضر ولا يفر منه فرار النعامة . كما يفعل الزيلوتي الذي يتصرف بغريزته ، بينما يتصرف الهيرودي بعقله •

لكن توينبي يرى في نفس الوقت أن الهيروديـة لا تكفي لايجـاد الحل الأنسب . لانها لعبة خطرة . اذ تؤدي ـ كما حدث في تركيـا ـ الى اجتياح جميع الميادين في تيار جارف • وبعبـارة أخـرى ان ناحيـة

الضعف في الهيرودية تكمن في التقليد وعدم الابداع . وفي ان ما تحققه لا يستطيع أن يهب الخلاص الا لأقلية ضئيلة .

وخلاصة نظرية توينبي في هذا الصدد تتمثل في أن الزيلوتي ـ أي الرجعي نادرا ما ينجو من الافناء . وحتى اذا نجا من الفناء فانه يستحيل الى راسب حضاري متحجر منقرض من حيث طاقاتــه الحيويــه . أمــا الهيرودي أي الداعي الى تقليد الغرب ، فقد يغرق وقد ينجو من الغــرق وفي حالة ما اذا نجا من الغرق فانه يسمي مقلــدا للحضارة الحيــة التي يندمج فيها . فلا الزيلوتي الرجعي ولا الهيرودي مقلد الغرب يقدران على أن يشاركا مشاركة خلاقة في انماء هذه الحضارة الحية .

اذا حاولنا تقييم عمل ابن باديس وتفكيره من خــلال هذا الميزان الذي وضعه توينبي لتفسير التاريخ الحضاري ، نجــد ان مــدرسة ابن باديس تمثل نموذجا أصيلا يختلف عن نموذج الزيلوتي الرجعي ، وعــن نموذج الهيرودي مقلد الغرب . فقد بيّنا من الشواهد التي سقناها مــن كلام ابن باديس أنه يرى الخلاص من تلك المحنــة المتمثلــة بالسيطــرة الاستعمارية في سلوك طريق أصيل يعتمد أولا على احياء وبعث المقومات الأساسية للشخصية الوطنية . وفي هذا الاطار يحتل الاسلام ـ في نظــر ابن باديس ـ مكانة هامة ، لا بوصفه احلام دروشة، أو غيبيات غامضة ، ولكن بوصفه نمطا حضاريا في الفكر والسلوك ، يساعد على مــد قنطرة متينة من الماضي الى المستقبل ، وطريق ابن باديس يعتمد ثانيا على الأخذ بوسائل الحضارة التقنية الحديثة ، وهضم علومها وأساليبها ، حتى تكون مواجهة الغرب ناجحة ، ليس فقط بالنسبة لمراحل البناء بعد الاستقلال .

فالفكر الاصلاحي عند ابن باديس لا يقف عند حدود الاهتمامــات الدينية الصرفة ، ولكنه مرتبط بحركة أوسع وأشمل وهي البحث عــن

أسلوب للقضاء على جميع أنواع التخلف التي تمثل أقوى أحلاف الاستعمار .

ومن هنا كان حرص ابن باديس على تحقيق تلك الازدواجيةالمتمثلة في تحقيق انبعاث المقومات الأساسية للشخصية الوطنية من جهة على أساس بعث أحسن ما في التراث العربي ـ الاسلامي من جهة ، ومن جهة أخرى تبني أصلح وألزم ما في الثقافة العصرية عن طريق تمثل وهضم الوسائل التي مكنت الغرب من التفوق ، مع اعتبار كبير للعوامل الاقتصادية .

والنتيجة الطبيعية لمثل هذا الموقف ، هو اتساع الأفق الفكري والحرص على تحقيق الانسجام بين ضرورات المحلية ومطالب العالمية . وهو ما لمسناه واضحا في كتابات ابن باديس الذي ما انفك يؤكد في كل مناسبة : « أنا أعلنا وما نزال نعلن بأننا شعب من أشد الواجبات عليه الاحتفاظ بما في الماضي من نفع ومدنية ، وعدم الزهد فيما في الحاضر من خير ومدنيات » . كما ما فتىء يؤكد انه « لا مانع من أخذ العلم عن كل ما هو حسن مما عند غيرنا » .

نعم قد يقال : لكن دعوة ابن باديس الى محاربة التخلف ، عن طريق الاعتماد على النفس في الميدان الاقتصادي والثقافي ، أليست دعوة مثالية ؟ أي هل من الممكن تحقيق ذلك في ظل الاستعمار ؟ أليست هناك أوليات أخرى ؟

أعتقد ان هذا السؤال يستحق الطرح ، وكل ما أستطيع أن أجيب به الآن هو أن ابن باديس في حرصه الشديد على تدارك التخلف حاول أن يضع يده على جميع الادواء والامراض ، وحاول أن يلفت نظر الناس الى عوامل التخلف بوصفها حليفة الاستعمار . ومن هنا كان احساسه الشديد

بضرورة السير السريع ومطالبته بالسرعة . لان السرعة كما يقول : هي « اليوم جهاز الحياة وبنزين الرقي . أما الخطوات الوئيدة المتباطئةفتعد نذير الموت الزئام » .

وأعتقد ان ما عرف عنه من واقعية كان سوف يؤدي به . لو أن الموت أمهله . الى ضبط أوليات هذه المعركة ضد التخلف . وتدل على ذلك كتاباته في الفترة الأخيرة من حياته التي تشير اشارة واضحة الى اليأس من الاسلوب السياسي التقليدي والى ضرورة «المغامرة والتضحية» حسب تعبيره ...

أقدم هذه الملاحظات للباحثين في تراث ابن باديس عسى أن يواصلوا العمل والتنقيب . الى أن يقدموا لنا الكلمة الفصل في الجواب عن السؤال الذي طرحناه : هل ابن باديس فيلسوف ؟ والى أي مدى نجح في صياغة فلسفة المعركة ضد التخلف ؟.

القسم الثاني

ابن باديس صحافياً
فاجعة قسنطينة

المقال الآتي ، الذي يحمل عنوان «فاجعة قسنطينة» . كتبه ابن باديس يصف أحداث الخامس من أوت ١٩٣٤ . التي وقعت في قسنطينة بسبب اعتداء يهودها على عربها .

وقد يبدو ذلك الاعتداء من يهود قسنطينة غريبا . خصوصا وأن معظمهم ينحدر من سلالات استقرت بالجزائر نحوا من عشرين قرنا . لم يلقوا خلالها عنتا أو اضطهادا .

والواقع ان سبب ذلك يرجع الى فرنسة يهود الجزائر الذين أصبحوا يعتبرون مواطنين فرنسيين كاملي الحقوق . ومن ثم تكونت عندهم عقدة التفوق ، وكأنهم أرادوا أن ينتقموا من الاهانات التي كانت تلحقهم من الفرنسيين اليمينيين المتعصبين : فاعتدوا على الجزائريين العزل .

وقد كانت لهذه الحوادث امتدادات خلال حرب التحرير الوطني ، اذ ارتكب بعض يهودقسنطينة يوم ١٢ ماي ١٩٥٦ مجازر رهيبة ضدالجزائريين مستغلين ظروف الحرب .

والمقال التالي الذي كتبه الشيخ ابن باديس ، زيادة عن كونه وثيقة حية عن الحوادث المذكورة ، يكشف عن ابن باديس الصحافي .

فاجعة قسنطينة

كتبنا في الجزء الماضي كلمة مختصرة جامعة في هذه الفاجعة وأردنا الاكتفاء بها ، لكن كثيرا من قراء الشهاب بقسنطينة وغيرها طلبوا منا أن نكتب الحقائق التي نعلمها بالصدق والصراحة التي تعودوها من مجلتهم فرأينا الصواب فيما طلبوا فعدنا للكتابة في هذا الجزء معتمدين في تصوير الواقع على ما شهدناه بأنفسنا وما شهده من يكون محل ثقة عندنا .

ابتداء الاعتداء :

ليلة السبت :

بينما كان الناس في ميضأة الجامع الاخضر أثر صلاة العشاء ليلة السبت وعددهم نحو الاثني عشر ، اذا باليهودي الياهو خليفي يفاجئهم مطلا عليهم من نافذة الميضأة مدعيا عليها كشف العورة عند الوضؤ ومبادرا لهم بقوله « نعل دينكم وصلاتكم وجامعكم والكبرا اتتاعكم » فاجابه بعض الحاضرين : « نحن لا نكشف عورتنا عند الوضؤ وديننا ينهانا عن كشف العورة دائما ولا نلومك لانك سكران » فأجاب : « لاراني بعقلي وراني عسكري نع ... النبي تتاعكم » .

خرج الناس في غاية الاستياء فأشار عليهم قيم المسجد ـ لاجل تهدئتهم ـ بتقديم شكاية للكوميسارية وهي برحبة الصوف أمامهم ، فامتثلوا وذهب شرطيان، الزواوي وابن عريوة، ودقا عليه الباب بأنهما من

أعوان الشرطة وأن عليه أن يجيب الكوميسارية وأنه لا خوف عليه من شيء، فأبى أن يجيبهم بكلمة، ومرت فرقة الجند المتجولة فاعلمها الشرطيان بالواقعة وطلبا منها اخراج الجاني ، فأبى من الامتثال لها ، كما أبى من الامتثال للشرطة . ففرق الشرطيان الناس وقالا لهم هذا شغلنا فتفرقوا ولم يبق الا القدر المعتاد في « رحبة الصوف » وذهبا .

بعد ذهابهما وقف اليهودي وزوجته في نافذة محلهما . وأخذا في السب مثل السب الاول فأرسل الناس القيم الى المفتي بكف عادية هـذا المعتدي بواسطة الحكومة وانتظر الناس المفتي على أحر من الجمر وهم يسمعون في السب من المعتدي .

رجع الشرطيان فوجدا الناس متجمهرين. فلما سألوهم لماذا رجعتم قالوا لهما : أنه عاد الى السب كما تسمعان . وكان هو وزوجته اذ ذاك ما زالا في النافذة على حالهما وكان غيرهما قد شاركهما في السب . وسمع الشرطيان بعض الناس يقول نهجم على داره فذهبا ووقفا عند بابها يحرسانها .

في هذه الساعة ابتدأ اليهود المجاورون برمي الكوانين والباديين فأجابهم المسلمون برمي الحجارة فشرع اليهود في الرمي بالرصاص .

أثناء هذا جاء المفتي بعدما أرسل الناس اليه مرة ثانية من أتوا به أو وجدوه آتيا فوقف يهدي الناس باذلا غاية جهده في ذلك فلم ينفع شيئا وقال له بعض الناس من برودتكم لحقتنا هذه الاهانات كلها حتى وصلنا لهذه الحالة .

أثر هذا جاء الدكتور جلول وقد كان خارج البلد في معالجة بعض مرضاه فوقف يهدىء الناس ، والرصاص ما زال ينصب من نوافذ اليهود واستطاع بعد الجهد الجهيد أن يسكن الناس ويفرقهم وانتهت المصيبة نحو الساعة الثالثة .

استنتاجات من حوادث هذه الليلة :

رغم ما سمعه المسلمون من سب « الياهو » الاول لدينهم وصلاتهم وجامعهم وكبرائهم لم يهتاجوا وأجابوه بكل تعقل وعذروه بأنه سكران وهذا دليل قطعي على تسامحهم وعدم حملهم لحقد ديني على اليهودي وعدم استعدادهم لفرصة الانتقام .

أما هو فانه نفى عن نفسه السكر واعتز بأنه عسكري وأعاد السبب بأقبح من الاول . وهذا دليل على أنه كان شاعرا بما يقول ويفعل ، وعلى اغتراره بالحرمة العسكرية وعلى قصده الى المبالغة في الاذاية ، والاغترار بالحرمة والقصد الى المبالغة في الاذاية هما الامران المشاهدان من عامة اليهود دائما في معاملتهم للمسلمين .

اقتناع المسلمين من اجابة الشرطة ومن اجابة فرقة الجند المتجولة على أنهم لم يكونوا يريدون أن يتوصلوا لحقهم على يد العدالة .

امتناع الياهو المعتدي من اجابة الشرطة ومن اجابة فرقة الجند المتجولة دليل على تمرده حتى على رجال الحكومة المدنية والعسكرية وما تجرأ على هذا الا لعلمه بأن نازلته مع المسلمين . وقد تعود هو وأمثاله أن نوازل تعديهم على المسلمين في الغالب — : تطرح وتهمل .

لما فرق الشرطيان الناس تفرقوا وهذا دليل آخر على انقياد الناس لاوامر دائرة حفظ الامن واعتمادهم عليها ودليل آخر على أنهم لم يكونوا يفكرون أن يجعلوا ما وقع من المعتدي سببا للانتقام .

بعد عودة اليهودي للسب هو وزوجته من نافذة دارهما لم يفعل المسلمون شيئا غير ارسالهم للمفتي وهذا دليل آخر على ضبطهم لعواطفهم وعدم قصدهم للانتقام وتصميمهم على انتظار الانصاف من طرف الحكومة ودائرة الامن العام .

شارك المعتدي غيره من يهود الحومة في السب بدل أن يكفوه عنه وهذا دليل على الروح المتفشية في عوام طائفته من الاستهانة بالمسلمين والتمالؤ على اذايتهم وعدم احترام الحكومة في ناحيتهم • وقف الشرطيان المسلمان عند باب اليهودي يحرسان داره ؛ وهذا دليل ما يتحلى به المسلم من احترام واجبه وقيامه به وعلى شدة محافظة اعوان الشرطة المسلمين على الامن والنظام •

رغم ما رأى المسلمون وما سمعوا فقد استمروا ماسكين لايديهم حتى ابتدأهم اليهود برمي البيادن والكوانين وهذا دليل واضح على تحمل اليهود لمسؤولية الشر بالقول والفعل •

استطاع الدكتور جلول بعد ما بذل جهد الابطال أن يسكن ثائرة الناس وهذا أول مواقفه العظيمة في اطفاء هذه الفتنة وهو دليل على مكانته عند الامة وعلى حسن استعماله لهذه المكانة في الخير •

صبيحة السبت ٤ اوت :

جئت الى ادارة الشهاب عند الساعة الثامنة فعلمت بالواقعة واعلمت باستدعائي من طرف مدير الشرطة •• فزرو مثلما أستدعى غيري •

اجتمعنا عنده فكان مما قال لنا انني دعوتكم لتعينوني على تنزيل العافية فابتدأته أنا فقلت له : وترجم عني السيد يحي أحمد « أن فطرتنا الاسلامية وعقائدنا الدينية واحترامنا لرجال الحكومة كل هذه تحملنا على معاونتكم فيما ذكرتم ولكن بمزيد الاسف ان الدين الذي نهذب به الناس ونربيهم وننزل في قلوبهم الرحمة قد وصلت الاهانة والتعدي اليه ومع ذلك فاننا سنبذل غاية المجهود • ورأى الجماعة أن يقابلوا القائم مقام البريفي فطلب لهم الكوميسار مقابلته وذهبنا كلنا الى دار العمالة •

خرج علينا م. لنديل القائم مقام « البريفي » فألقى خطابا طويلا ترجمه السيد عمر بن الموفق . كله تأسف على ما وقع وتوصية بلزوم العافية وتهوين لما كان من اليهودي السكران ووعد بان العدالة ستقتص منه وبعد ما فرغ من خطابه سأل هل من يريد الكلام فابتدأته أنا فكان مما قلت : ان هذا الاعتداء ليس هو الاعتداء الاول واننا معشر المسلمين نحب السلم بطبعنا وقد بات مفتينا ونائبنا يهدئان الناس وان المسلمين لا يستطيعون الصبر دائما على التعدي على أمر دينهم فان الامر حينئذ يصعب علينا وأن اليهودي المعتدي على الجامع اذا كان هو سكران فان زوجته وجيرانه الذين شاركوه في السب وابتدأوا بالضرب ليسوا بسكارى وبينت له أن الشيء الذي جرأ اليهود على هذه التعديات المتكررة هو ما يحملون من السلاح مع علمهم بأن المسلمين لا سلاح لهم وأنهم ما داموا يحملون من السلاح ويطلقون الرصاص لأدنى شيء فان الشر لا ينتهي وطلبت منه لذلك نزع السلاح منهم فاعتذر بأن هذا لا يسكنه معهم لانهم « سيطويان » [1] وطلبت منه أن يقوم بتوصيتهم والتأكيد عيهم في كف عامتهم عن الشر فأجاب بأنه يفعل ذلك أو قد فعله .

ثم استدعى جماعتهم : فيهم اعيانهم ونوابهم وحبرهم وخطب على الجميع بلزوم التسامح والنسيان لما مضى فابتدأته انا بالكلام فمما قلت له : ان المسامحة الحقيقية لا تكون الا بعد العتاب الودي المبني على الحقائق الواقعة وتوجهت لمخاطبة الجماعة الاسرائيليين فذكرتهم باعتداءاتهم المتكررة التي من أقربها اعتداء اولادهم على ولد ابن البجاوي من تلامذة (الليسى) حتى كسروا ساقه : وقبيلها اعتداؤهم علي وعلى مدير مجلة الشهاب السيد

---

(١) كلمة فرنسية تعني « مواطن » ، اي مواطن فرنسي : وليس « اهليا » مثل الجزائريين .

أحمد بوشمال وذكرتهم بمسامحتنا وسترنا للواقعة حتى لا يقع بسببها شر •
كل ذلك لما نحن مصممون عليه من منع كل فتنة بين السكان وذكرت لهم أنهم غير ما مرة اجتمعوا مع جماعة المسلمين أمام رجال دار « البريفي » وفي كل مرة تعدون بكف سفهائكم ولكن الاعتداء يتجدد، فهذا أما لان عامتكم لا تحترمكم ولا تنقاد اليكم واما لانكم انتم لم تصدقوا في تهدئتهم وكفهم عن الشر واذا كانت عامتكم لا تنقاد اليكم والحكومة لا تنزع منها السلاح فمن الذي يكفها ويرد عنا شرها ؟

انتهى المجلس باعتذارهم عما وقع ووعدهم ـ كالعادة ـ بكف سفهائهم ، وتصافح الجميع وتصافت الخواطر وخرج المجتمعون كلهم متواعدين على العمل على تنزيل العافية وتوطيد الامن •

مساء السبت :

اجتمعت بالدكتور جلول فاتفقنا على أن نخطب في الناس لتهدئتهم ورأينا وجوب المبادرة بذلك قبل دخول الليل وكان هذا في آخر النهار نحو الخامسة والنصف فأمرنا من نادى في الناس• فالاجتماع في الجامع الكبير على الساعة السابعة فما جاءت الساعة السابعة حتى امتلأ الجامع الكبير بالناس من جميع طبقاتهم رغم ضيق ما بين وقت المناداة ووقت الاجتماع وكان الناس في تهيج شديد وتأثر بالغ فقد ضرب اليهود بعض الأفراد في ذلك المساء ؛ وقبل أن أصعد على كرسي الخطابة نادى جماعة بأن اليهود ما زالوا يحملون السلاح لقتلنا وقد ضربوا وجرحوا في هذا المساء العديد منا فبادرت بالصعود على الكرسي وافتتحت الخطاب واستطعت ـ باذن الله ـ التغلب على تلك العواطف الثائرة ؛ وأظهروا الطاعة والقبول فنزلت على الكرسي وصعد الدكتور جلول فألقى خطابا مؤثرا فازداد الناس قبولا وخرج ذلك الجمع الذي يقدر بالالاف هادئا مهدئا بعد ما كان متأثرا هائجا ووقفنا في

الطريق العام نفرق الجموع ونطلب منهم أن يذهب كل واحد الى محله وأن يعلم غيره بما دعوناهم اليه من لزوم الهدوء ، وما تفرق الناس حتى اقسمت لهم أنني لا أذهب حتى يذهبوا • وكنا عند الخروج من الجامع قد جاءنا خبر صحيح بجرح ولد صغير مكفول لاحد الناس فاستطعنا ــ باذن الله ــ أن نقف الخبر عن الانتشار وأن نهدىء من بلغه الخبر وكافل ذلك الصغير •

تفرق الناس وخلت منهم الطرقات ونزل الهدوء التام وباتت البلدة في أمن وأمان وسهرت أنا والدكتور جلول وبعض النواب الى منتصف الليل تتجول في بعض الشوارع فشاهدنا بأنفسنا هدوءا شاملا للبلدة كلها •

استنتاجات من حوادث يوم السبت وليلة الاحد :

في قول من قال قبل الشروع في الخطبة « أن اليهود ما زالوا يحملون السلاح لقتلنا ، وقد ضربوا وجرحوا في هذا المساء منا » ، دليل على ما كان لبقاء السلاح عند اليهود من الاثر السيء في ادخال الروع في القلوب مما يقوي في النفس غريزة الدفاع عن الحياة ، وعلى ما كان من عود اليهود الى الضرب الذي فرغ ما عند المسلمين من الصبر عليه •

وفي هدوء المسلمين بعد ما سمعوا مني ومن الدكتور جلول دليل على انقيادهم لمن يكون محل ثقتهم وتمسكهم باسباب العافية حتى في احرج الاوقات • وكانت ليلة الاحد بتمامها أصدق دليل وأقواه على ذلك •

يوم الاحد ٥ اوت :

أصبح الناس يوم الاحد على أحسن حال لا فرق بينه وبين سائر الايام وأصبحت المعاملات التجارية بين المسلمين واليهود في سوق الخضر وغيره كعادتها •

مررت نحو الثامنة ونصف أمام «دار المير» [1] نازلا الى باب الوادي، فالتقيت بسي سليم البوليس السري فسألني هل عندكم اجتماع هذه الصبيحة في الصنوبر فأجبته بالنفي وذكرت له أن الاجتماع الذي أردناه قد وقع أمس عشية بالجامع الكبير وأننا اخترنا بالامس الجامع الكبير ليكون أعون لنا على ضبط الناس وقد حصل مقصودنا من تهدئة الناس باجتماع أمس فلماذا نعقد اجتماعا آخر ؟ وكيف يكون في الصنوبر .

وصلت الى ادارة الشهاب نحو الساعة التاسعة فجاء من أخبرني أن بعض الناس اجتمعوا في الصنوبر وقيل لي أن هؤلاء لما سمعوا بالاجتماع ولم يعلموا بوقوعه أمس ظنوا ان يقع اليوم وبعد نحو ربع ساعة جاء من أعلمني بأنهم افترقوا .

نحو الساعة العاشرة ذهبت الى جمعيةالتربية والتعليملالقي محاضرتي على أعضائها فما كدنا نشرع في المحاضرة حتى جاءنا من أخبرنا أن اليهود أطلقوا الرصاص في جهة « رحبة الصوف » وأن الفتنة قد وقعت وأخذنا أثر ذلك نسمع في طلق الرصاص المرات الكثيرة فمكثنا كلنا بالجمعية الىالساعة الثانية عشرة ، فسرحت التلامذة مثنى وثلاث وأمرتهم بأن لا يصعدوا الى رحبة الصوف التي كنا نحسب اذ ذاك أن الفتنة قاصرة عليها . ونحو الساعة الواحدة بعد الزوال صعدت الى دارنا بنهج القصبة محروسا بفرقة من الجند .

كيف ابتدات الفتنة وكيف انتهت ؟

من الشائع المتواتر الذي عرفته حتى الجرائد الباريسية فنشرته جريدة « لاكسيون فرانسيس » ان الفتنة ابتدأت بسبب طلقأبناء الزاوي اليهود

---

(١) دار البلدية .

الرصاص ثم كان اهتياج الناس بقدر ما يتزايد اطلاق الرصاص من اليهود الحاملين السلاح •

حضر الدكتور جلول لرحبة الصوف والفتنة على أشدها فدخل المعمعة يهدىء الناس من ناحية ويضمد الجراح من ناحية أخرى وكانت حالة الناس — وهم يسمعون دوي الرصاص ويشاهدون الجرحى يتساقطون منهم — أعظم من أن تهدأ • ومع ذلك فقد استطاع الدكتور جلول أن يرد الناس عن الهجوم على « الشارع » [1] حومة اليهود ولولاه لكان ذلك الجمع مصبحا اليهود في شارعهم شر صباح •

انتشر الخبر في البلد وماجت الانهج بالناس وكثر ضرب اليهود بالرصاص من النوافذ فانكب الناس على دكاكين اليهود التي كانت مقفلة يوم الاحد يكسرون أبوابها ويمزقون ما فيها من قماش ويهشمون ما فيها من أثاث ويمزقون الاوراق المالية وأطلقوا النار في بعضها وقتلوا نيفا وعشرين نفسا وفرغوا من عملهم نحو الساعة الثانية •

استنتاج وتعليل

فتح أسواق الخضر الاسلامية كعادتها ، وتعاطى المسلمون البيع والشراء مع اليهود واليهوديات دليل قاطع على أن المسلمين كانوا قد اطمأنوا وأمنوا على انهم كانوا عازمين على شيء من الشر لليهود •

ابتدأ ابناء الصائغي بضرب الرصاص ، ورؤية الناس المسلمين السلاح بيد اليهود والرصاص يتهاطل من نوافذهم وهم لا سلاح لهم بعث فيهم الرعب والحنق فاندفعوا ذلك الاندفاع القوي السريع المحطم •

---

(1) « الشارع » كلمة كانت تطلق بقسنطينة على المنطقة التي يسكن بها اليهود .

غريزة الدفاع عن النفس فطرية في الانسان بل في جميع الحيوان فاذا أحس بالخطر فانه يعمل اعمالا عن غير وعي لا يستطيع أن يعملها لولا ما أحس به من الخطر وما تحرك فيه من غريزة الدفاع عن النفس فقد يجري للانسان فأرا أمام حيوان يريد افتراسه بمقدار من السرعة لا يستطيعه أبدا في غير تلك الحال فالانسان الاعزل الذي لا سلاح معه عندما يرى خصمه مسلحا ويشاهد الرصاص منطلقا من سلاحه يحس بخطر داهم فتتحرك فيه غريزة الدفاع عن النفس فينبعث عن غير وعي فينقض على خصمه انقضاض المستميت فربما قضى عليه رغم سلاحه • هذا في الفرد من الناس أما في الجموع منهم فان المسألة تكون أروع لان الجماعة لا تعمل عن عاطفة فاذا خافت على أنفسها واندفعت بغريزة الدفاع عنها فانها تأتي في تلك الحالة بما لا تتصوره العقول •

بهذا التقرير العلمي النفسي نعلل ما كان من الجماعة المسلمة العزلاء من السلاح أمام اليهود المسلحين في اندفاعها وما أتت به من أعمال مروعة •

ولعلمنا بهذه الحقيقة العلمية النفسية كنا حريصين امام القائم مقام « البريفي » على نزع السلاح من اليهود ؛ وقد أمرت السلطة أعوانها بنزع السلاح من المارة في الازقة ولكن بعد فوات الوقت •

فالذين قاموا بتلك الاعمال من المسلمين لم يكونوا مندفعين اليها بحقد على اليهود ولا بعامل ديني ولا ببغض جنسي وانما كانوا مندفعين بغريزة الدفاع عن النفس أمام الخطر المسلح •

نعم كان المسلمون يسمعون دائما سب دينهم ونبيهم من اليهود وخصوصا من النساء وكانوا يشعرون بتسلطهم في دوائر الحكومة وعلى رجال بارزين من الساسة الفرنسيين ويعلمون تغلبهم في الوظائف حتى على الفرنسيين انفسهم وحسبك أن موزعي البريد ببلدة قسنطينة منهم ثلاثون

ونيف ومن الفرنسيس خمسة ومن المسلمين واحد ولكن هذا كله ما كـان ليبعثهم على ما انبعثوا اليه لو لم تتحرك فيهم غريزة الدفاع عن النفس أمام الخطر المسلح • بل كان ذلك كله مما أسكن في قلوبهم الخوف والاستسلام للواقع •

قتل من اليهود نيف وعشرون كان منهم خمس نسوة وستةمن الصبيان وكان المعتدون لما يشتد الرمي بالرصاص من النوافذ ومن أيدي بعض النساء في بعض الجهات يصعدون للمنازل فيبطشون بمن فيها عن غير تمييز • وكان قتل النساء والصبيان دليلا على أن المعتدين لم يكن اندفاعهم عن عقيـدة الاسلام الذي معلوم مشهور عند أهله أنه يحرم قتل النساء والصبيان حتى في الحرب المشروعة وعلى أن تلك الفظاعة هي من آثار الجهل ، وتلك الحالة النفسية الخاصة الطارئة لا من آثار الاسلام •

المصائب على الجانبين :

اذا كانت دكاكين اليهود قد أصيبت كما اصيبت ، فان دكاكين المسلمين التي في حومة اليهود قد اصيبت كذلك ، واذا كانت خسائرها قليلة فذلك لانها قليلة ولانها ضعيفة كأصحابها الضعفاء ، بخلاف دكاكين اليهود فقـد كانت خسائرها كثيرة لانها هي كثيرة ولانها قوية كأصحابها الاقوياء •

واذا كان القتلى من اليهود نيفا وعشرين ومن المسلمين اثنين فالفـضل لمسدسات اليهود التي خانتهم عند الضرب فالمطر الوابل من الرصاص الذي نزل من مسدساتهم ما قصدوا به الا القتل وازهاق الارواح بلا فرق بين من في الانهج من رجال ونساء وشيوخ وصبيان وجنود ، وقد جرحوا بالفعل نحو الاربع من الصبيان ، وجرحوا جنديين أو ثلاثة فلو صحت من اليهـود في الرمي زنودهم ، كما صحت في القتل قصودهم، لكان القتلى من المسلمين

ـ كبارا وصغارا ـ يعدون بالمئات وليس من قصد القتل وارتكب سببه ولم يتم له ما قصد لمانع دون من قتل بالفعل في الجرم •

أما عدد الجرحى فقد تساوى أو تقارب من المسلمين ومنهم فكان من الجانبين نيفا وعشرين وكان كثير من جرحى المسلمين بسلاح الجند مما يدل على أن الجنود وان لم يطلقوا الرصاص لعدم الاذن لهم بذلك فقد دفعوا الناس بالسلاح الابيض •

ليلة الاثنين ويومها :

اعلنت حالة الحصار ومنع المرور بالانهج الا بورقة المرور •

وفي مساء الاثنين رغبت مني دار « البريفي » بواسطة انسان له مقام عندي ، أن أذهب الى عين البيضاء لتهدئة الناس • ولما كان هذا من أعمال الخير التي وقفت لها نفسي ، أجبت الطلب وصحبني السيد عمر بن الموفق ليباشر هو الناحية الادارية ورجالها وأباشر أنا ناحية الامة • ولما وصلنا الى عين البيضاء في منتصف الليل بقيت السيارة ونزل السيد عمر الى دار « المير » وبعد نحو ساعة رجع الي يقول أن بعض النواب يرون أنهم قد قاموا بتهدئة الناس وأن دخول غيرهم ربما يشعر بتقصيرهم هم في واجبهم ، فقفلنا راجعين •

وقد علمنا بعد ذلك من حوادث عين البيضاء أن شرطيا يهوديا أطلق الرصاص على ولد صغير مسلم أرسله أبوه لشراء الغاز وهذا الولد جيء به الى مستشفى قسنطينة وتوفى به • وان النائب العمالي س• بوماليى قدم استعفاءه للبريفي احتجاجا على تكليف غيره بتهدئة الناس •

في ليلة الاثنين جدد اليهود اعتداءهم على بيوت الله :

يقع مسجد سيدي الكتاني في رحبة سوق العصر في وسطحومة اليهود ففي ليلة الاثنين هاجمه اليهود فكسروا أربعة أو خمسة من نوافذه وهشموا التخاريب التي على أحد أبوابه وقد حققت ذلك ادارة الامن واثبتت فيه تقريرا رسميا •

استنتاجات وملاحظات :

اجبنا رغبة الحكومة لما دعتنا الى فعل الخير ومددنا يدنا للتعاون معها على ذلك فهي علمت من ذلك أننا دعاة خير وسعاة احسان ، وهل هي بعد ذلك تستطيع أن تخلي بيننا وبين ما نقوم به مما هو أصل كل خير الا وهو نشر العلم والدين ؟•

أما النواب الذين زعموا ذلك الزعم فاحسب أن الانانية حالت بينهم وبين فهم معنى التعاون والا فان القائم بواجبه مهما كان مقدار قيامه فانه لا يأنف من اعانته فيه محبة في تحقيق ذلك الواجب على أكمل وجوهه لكن هذا اذا كان قيامه بالواجب لاجل الواجب نفسه ، لا لشائبة من حظه وغرضه •

وأما النائب الذي قدم استعفاءه وتحمس فاننا كنا نود أن لو كان عنده هذا الحماس وهذه الغيرة والحمية في مواطن أخرى كان فيها حضرته باردا ومبردا ، ولا حاجة لنا الى تعريفه بهذه المواطن فالناس كلهم على علم بها وعلى ذكر منها • ونحن وان كنا نرى حماسته هذه في غير محلها فانا نتفاءل لحضرته بها خيرا ونرجوا أن تدوم له في مواقفه القادمة في حياته العامة أن قدر له العود اليها •

قتل الشرطي اليهودي ولدا صغيرا رميا بالرصاص•• وهل نحتاج بعد هذا الى دليل على روح العداء والتعدي ؟ ومن الثابت أيضا أن بعض الشرطة

اليهود بقسنطينة أطلقوا الرصاص وأن شرطيا اسمه علوش سكرو قال سأضرب وأفعل فعزل من الشرطة لثبوت ذلك عليه. فأذكر هنا ما تقدم عن ليلة السبت بقسنطينة وكيف وقف الشرطيان المسلمان أمام دور اليهودي الياهو أصل الشر والبلاء يحرسانها وقس بين الروح والروح والتربية والتربية .

صبيحة الثلاثاء :

استدعى الوالي العام وفدا من المسلمين وألقى عليهم خطابا دل على وقوفه موقف الحاكم العادل الذي يريد أن يعرف الحقيقة لذاتها . واذن للجماعة بالكلام فقدموا الدكتور جلول فألقى خطابا جامعا صور فيه الواقعة تصويرا فوتوغرافيا نظن أنه أبلغ وأصدق ما سمعه الوالي العام عن صورة الحالة . سأل الوالي الدكتور عن سبب اجتماع الناس في الصنوبر صبيحة الاحد فأجابه الدكتور بأن الذين اجتمعوا بالصنوبر هم الذين سمعوا مساء السبت بالاجتماع على الساعة السابعة فحسبوها صباحا وأوقعهم في هذا الغلط ضيق ما بين وقت الاعلام بالاجتماع الذي وقع بالجامع الكبير ووقوعه . ثم قدموا الاستاذ مختار ابن الحاج سعيد المحامي فألقى خطابا بليغا دافع فيه عن الحقيقة بصدق وانصاف ، ثم تكلم النائب المالي السيد محمد المصطفى ابن باديس وقال أنه موافق على كل ما قاله الدكتور جلول واستاذ مختار . ثم أعاد الوالي الحديث وسأل الوفد هل يستطيعون أن يعدوه بكف المسلمين فأجابه السيد ابن باديس أن المسلمين منكفون بالفعل وأننا نعد بكفهم ؛ وأننا نستطيع ذلك بشرط أن ينكف اليهود الذين قد تكرر منهم الاعتداء فأجاب الوالي العام بأنه يعتمد عليهم وأنه سيكلم اليهود مثل ما كلمهم .

وفاء الوفد بوعـده :

خرج ذلك الوفد الاسلامي الحافل المتركب مـن النواب والاعيـان وبعض أهل العلم فارتأوا أن يبادروا بوفاء وعدهم للوالي العام بأن يتجولوا في الانهج الاسلامية ويعرفوا الناس بمقابلتهم للوالي العام وما طلب منهم وما التزموا به عن اخوانهم المسلمين واتفقوا على أن أقوم خطيبا في كل نهج من الانهج الكبرى الاسلامية لاخطب في الناس بذلك فوقفنا بضعة عشر موقفا القيت فيها بضع عشرة خطبة أخاطب فيها الناس باسم الوفد وأدعوهم الـى الهدوء والسكينة وأذكرهم بآداب الاسلام وأعرفهم بما كان من طلب الوالي العام وما كان من التزام نوابهم ، وكان الله ــ وله الحمد ــ يفتح في كل موقف بفن من فنون التذكير وكان اخوالي المسلمون ــ جعلني الله فداءهم ــ يلتفون بنا في كل موقف ويبدون من الاستماع للوعظ والانقياد للخير ما عرفني بما تنطوي عليه تلك الصدور المحمدية الطيبة من الروح الاسلامية الشريفة ، والاداب الدينية العالية الكامنة فيهم ، التي لا يحتاج في اظهارهـا الا لكلمة صادقة عن نية خالصة . وكان كل موقف يختم باعطاء كلمتهم بأن لا يكون منهم سؤ وبالدعاء للجميع .

عملت تلك الخطب ــ باذن الله ــ عملها في قلـوب كانت متفرقـة فاتحدت وأرواح كانت متناكرة فتعارفت وما انتهينا الى آخر مواقفنا ــ وكان أمام مكتب وعيادة الدكتور ابن جلول ــ حتى تصافح هو والسيـد محمد المصطفى بن باديس وصعد النواب كلهم الـى مكتب الدكتـور ، فأعدتهم الى النهج ليحضروا آخر موقف وليسمعوا آخر خطـاب ، ولم أكتف بوقوفهم بنوافذ المكتب المطلة على النهج فلما نزلوا خطبت في الجمع خطابا يشتمل على أصل ما ألقيت الخطب لاجله وعلى ما ناسب ذلك الموقف الذي تجلت فيه روح الاخاء والصفاء، وكان ذلك الموقف لمواقفنا ــ والفضل لله ــ خير ختام .

يوم السبت ١١ اوت :

صبيحة السبت قابل وفد المسلمين عامل العمالة ودار الحديث في الحوادث التي وقعت ورأينا من عاملنا الجديد رجلا يحمل روحا فرنسية لطيفة ويتحلى بآداب الموظف العالي • أبدى تأسفه أن وجد قسنطينة أول قدومه في هذه الفاجعة وأظهر رغبته في رجوع الامور الى مجاريها • وبعدما تكلم الدكتور جلول والطبيب زرقين وغيرهما تكلم النائب المالي ابن باديس فذكر للسيد العامل أن الامن من ناحية المسلمين قد استتب وأن جماعة المسلمين قد استطاعوا بما قاموا به أن يهدءوا اخوانهم على كثة عدد المسلمين وانتشارهم وأن جماعة اليهود من ناحيتهم لم يقوموا بشيء مما قام به جماعة المسلمين على قلة عدد اليهود وسهولة ابلاغ الصوت اليهم ولذا فان المسلمين لم يتجدد منهم شيء من يوم الحادثة وأما اليهود فقد تجدد منهم الاعتداء مرارا وذكر له الولد بياع الجرائد الذي جرحوه برحبة الصوف وولدا آخر صب عليه المادة الملتهبة الفيتربول والرجل الذي أطلقوا عليه الرصاص بنهج فرانس كل هذا ما بين يوم الاربعاء والسبت فوعد العامل بأمرهم بالكف والتأكيد عليهم به •

تنظير بين المسلمين واليهود :

نريد أن نعرض الطبقات من المسلمين واليهود لنعرف موقفهم من هذه الفتنة اعتمادا على المعلومات المتقدمة •

النواب :

وقف الدكتور جلول النائب العمالي ليلة السبت برحبة الصوف وقفة المهدىء للجمع المسكن للثائرةومعه السيد محمد امزيان النائب البلدي يعينه على ذلك ويبذل جهده مثله •

وحضر النائب العمالي اليهودي لولوش فبدلا من أن يهدىء قومه

ويأتي باليهودي المعتدي ويدخله حبس الكوميسيارية وكان في استطاعته ذلك ولو فعله لاطفأ تأثر المسلمين في الحين . لانهم ما كانوا يريـدون الا عقاب ذلك المعتدي على دينهم ونبيهم وجماعتهم ومسجدهم ، بدلا من أن يفعل هذا كان تارة يستبعد وقوع ما وقع من الاعتداء وتارة يستكبر علـى المسلمين تأثرهم من ذلك الاعتداء ان وقع . ولم يظهر منه أدنـى شيء في التهدئة والتسكين .

كان الدكتور جلول صبيحة الاحد ينتقل من مكان الى مكان مهدئـا للناس مداويا للجرحى معرضا نفسه للخطر . ومما شهد له بمواقفه في ذلك اليوم التقرير الرسمي للجندرمة . أما النائب العمالـي لولوش فقـد اختار السلامة التي ذاق حلاوتها أيام أبقته الاعذار بقسنطينة بعيدا عن ميادين الحرب الكبرى .

أبدى النواب المسلمون في كل ما كتبوا ونشروا وتكلموا أمام الحكام غاية التعقل والرصانة والحكمة وأعلنوا ثقتهم بالحكومة وبالعدالة وكرروا دعوتهم الى تناسي الماضي والعمل لخير المستقبل وجددوا تأسفهم بعبارات دالة على كمال في الانسانية وسمو في الدين .

أما النائب لولوش وغيره فقد كانت تقاريرهم وخطبهم ومنشوراتهم ــ وخصوصا رلبور لولوش ــ تهجمات حتى على الحكومة وتقولات بالباطل والكذب على النواب المسلمين مما ينم عن أمراض قلبية ــ والعياذ بالله ــ ويدل على قلة أدب وافلاس سياسة .

طاف النواب الانهج الاسلامية وخطبوا في الناس بلسان من قدموا لذلك ووفوا بوعدهم للوالي العام ولم يفعل شيئا مـن ذلـك النـواب اليهود .

مفتي المسلمين وحبر اليهود :

جاء المفتي ليلة السبت وبذل جهده • أما حبر اليهود فلم يأت لا هـــو ولا واحد من طرفه •

الشرطـة :

قام الشرطة المسلمون بواجبهم ولم تغلب عواطفهم على أمانتهم حتى تقدم منهم من حرس باب المعتدي الاثيم الياهو خليفي • أما الشرطة اليهود فقد كان منهم من أطلق النار ومنهم من قتل وهو شرطي عين البيضاء •

الأمـــة :

وفى المسلمون بوعدهم لجماعتهم فلم يكن منهم اي اعتداء، أما اليهود فما زال الاعتداء يتكرر منهم على من ينفردون به وحده كما فعلوا بعلي سليمان بن لخضر • ومن أقرب ذلك رمى صبيانهم نوافذ من جامع سيدي الكتاني فكسروها • نقول هذا ونحن على ثقة من تعقل اخواننا المسلمين وعدم التفاتهم الى هذه الافعال الطائشة التي تتولى أمرها العدالة وأنهـم يبلغون كل ما يلحقهم الى العدالة لتقوم بواجبها نحو المعتدين كما طلبنا منهم في خطبنا ووعدوا به وهم الموفون بما وعدوا •

القتلـى :

دفن اليهود قتلاهم في مشهد حافل ، أما قتلانا ــ وهم الرجل الذي قتل يوم الاحد والصبي الذي قتله الشرطي بعين البيضاء والذي مات مــن جراحه بعد ذلك ــ فانهم دفنوا دون أن يشيعهم أحد ، ودون أن تقال عليهم كلمة ودون أن تراق عليهم دمعة •

علمنا أنهم يدفنون هكذا وسكتنا ـ لا لهون المصاب علينا ولا لقلة ألمنا وحزننا ـ ولكن موافقة للارادة على تجنب كل ما قد يثير العواطف ويكون مخيف العاقبة ، وعلمت الامة بهذا ورضيت به انقيادا لرجالها لما لها بهم من الثقة واظهارا لما عندها من الرغبة في الهدوء والسكينة والتغلب على العاطفة أمام ما فيه مصلحة عامة .

ابنُ باديس ... المعلّم

* الرجل المسلم الجزائري
* دروس الجامع الاخضر
* ضرورة تعلم اللغات الاجنبية
* الشعب الجزائري لن يموت
* مؤتمر المعلمين الاحرار
* دفاع عن اللغة العربية

يعتبر جانب المعلم والمربي ، من أبرز جوانب ابن باديس وأقواهـا فقد وقف على التربيـة والتعليم معظم نشاطاته • وأنشأ بقسنطينة « مدرسة التربية والتعليم » ، التي كان يشرف عليها في نفس الوقت الذي كـان يشرف فيه على دروس التعليم المسجدي بالجامع الأخضر •

وقد اخترنا فيما يلي نماذج من كتاباته في هذا الموضوع :

فمقال « الرجل المسلم الجزائري » هو تلخيص لمحاضرة كان ألقاها خلال شهر أوت عام ١٩٢٩ في عاصمـة الجزائر • وقـد كانت من بين المواضيع التي تدور حولها المناقشات آنذاك في الاوساط المفرنسه هـو دعوة المرأة الجزائرية الى الدراسة في المـدارس الفرنسية • وعلى الرغم من أن نظرة ابن باديس الى المرأة كانت نظرة تقليدية فقد استطاع في هذا المقال أن يكشف عن حقيقتين هامتين :

الاولى :

نفاق الذين يدعون الى تعلم المرأة في المدارس الفرنسية متعمديـن السكوت عن الدعوة الى تعلم الرجل •

الثاني :

احساسه بالدور الذي تقوم به المرأة في الحفاظ على مقومـات

الشخصية الوطنيـــة وما يترتب على تعلمها في مـــدارس فرنسية يخطط الاستعمار برامجها ، من مسخ لشخصيتها سوف يمتد الى الجيل الـــذي تربيه بعد ذلك .

أما الموضوع الذي يلبي ذلك ، فهو الاعلان عن الدروس المسجديـــة بالجامع الاخضر ، واضح في تسجيل تضامن الشعب من خلال سهره على تعليم المعوزين وضمان أكلهم ومبيتهم .

يلي ذلك موضوع جعلنا نحن عنوانه « تعلم اللغات الاجنبيـــة » ، وعنوانه الاصلي هو « من السنة تعلم اللغات المحتاج اليها » ويظهر لنـــا هذا الموضوع استنباط ابن باديس واستنتاجه فيما يتعلق بتعلم اللغـــات الاجنبية ، والفرنسية خاصة ، في عصره ، وتفطنه الى المصالح التي يؤمنها تعلم اللغة الاجنبية .

ولم يكتف ابن باديس باستنباط نظري ، بل جعل اللغة الفرنسية ضمن المواد التي تعلم في مدرسة التربية والتعليم ، كما يؤكـــد ذلك موضوع التقرير الادبي الذي ألقاه بدار جمعية التربية والتعليم ، والذي جعلنـــا عنوانه « الشعب الجزائري لن يموت »

وفي هذا الموضوع يحرص ابن باديس على أن يكشف عن العلاقـــة الموجودة بيـــن العربية وبين الروح الوطنية والشعور القومي ، كمايكشف عن الاهمية التي تلعبها في صنع خلود الشعب وصموده .

وقد أعقبنا المقال المذكور باعـــلان عن « مؤتمر المعلمين الأحرار » لانه يقدم صورة واضحة عن جدول اعمال المؤتمر المذكور ، الذي يكشف في الوقت نفسه عن نوع الاهتمامات التعليمية . وهنا نلاحظ أن تعليـــم البنت الجزائرية يحتل مكانة خاصة من اهتمامات ابن باديس اذ ضمنـــه جـــدول الاعمـــــال .

أما الموضوع الاخير من هذا القسم ، الذي يحمل عنـوان « يـــا لله الاسلام والعربية في الجزائر » ، فهو تعليق من ابن باديس على قانون ٨ مارس ١٩٣٨ الذي وضع خصيصا لمحاربة اللغة العربية في الجزائر •

وتجدر الاشارة الى أن ابن باديس لم يقتصر على التنديد بالقانون المذكور ، بل ذيل مقاله بدعوة كل معلم عربية نزعت منـه رخصتـه ، أو رفضت له رخصة ،أو تعرض لاجراء حكومي ، أن يكاتبه ، كما يدعو كـل جماعـة تعتزم فتح مدرسة أن تراسلـه حتى يرشدهـا الى ما يسميـه بـ « الوجوه القانونية » •

الرجل المسلم الجزائري

القيت محاضرة في هذا الموضوع بنادي الترقي بالعاصمة في شهر ربيع الاول • وفيما يلي أكتبها على ما بقي في ذهني ، كنت القيتها ارتجالا واذا شذ عني شيء فلا يكون الا قليلا •

سبب أختياري للموضوع :

كنت ـ وانا قادم للعاصمة من مصيف « حصن الماء » ـ أحوم على موضوع أختاره للمحاضرة التي اقترحها علي أعضاء النادي المحترمون • فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها • وبينما أنا افكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها اذا أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقنوره وقف أمامي ـ لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي ـ وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول :

« أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها ؟ لي أنا الرجل الجاهل ليقعن لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب من الجاهل القوي الغالب •ومن يعلمها ؟ انا الجاهل • كيف أترك نفسي وأعلمها ؟

أنتم تفكرون في نزع حجابها وخلطها بالمجتمعات • ألا تخافون عليها غيرتي فلأقاتلن عليها • ألا تخافون أغارتي ؟ فلا يضايقهن ولترين مني كل أنواع التعدي والاذى •

اذا أردتم التفكير الصحيح والاصلاح المنتج ففكروا في" قبلها ، فأنا أبوها ، وزوجها ، ووليها ومصدر خيرها وشرها •

واذا أردتم اصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها ، فان حجاب الجهل هو الذي أخرها • وأما حجاب الستر فانه ما ضرها في زمان التقدم فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانا عاليا في العلم وهن متحجبات • فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم الى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء ••

فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحججه الدامغة ما وسعني الى العدول عن التفكير في المرأة الى التفكير في الرجل فاخترت موضوع المقالة : « الرجل المسلم الجزائري » •

المراد من الموضوع :

هذا موضوع مجمل ، فالرجل المسلم الجزائري موضوع بحوث طويلة من نواح عديدة لكنني أتكلم عليه من نواح ثلاث ، رجولته ، اسلاميته ، جزائريته •

الرجـل :

خلق الرجل قويا ، متهيئا بما منح من القوة للقيام بما يقتضيها من عظائم الامور وجلائل الاعمال ، للانسانية التي هو فرد منها ، للوطن الذي هو من نباته ، وللبلد الذي هو من سكانه ، للبيت الذي هو رئيسه •

هو رئيس البيت ، و «الرجال قوامون على النساء » فعليه واجب الرعاية : بالسعي والتكسب ، بالتهذيب والتعليم ، للزوجة ، للابناء للبنات « يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة»

وله حق الولاية « وللرجال عليهن درجة » درجة الولاية بالنظر والتدبير ، والتنظيم والتسيير ؛ فهو السيد في بيته ليكون سيدا في قومه . والسيادة الحقيقية انما هي بالنفع والعمل المنتج . فسيد البيت هو الاكثر عملا والاجلب نفعا له ؛ وسيد الوطن هو الاعمل والانفع في سبيله . فالسيادة حظ العاملين على درجاتهم في الاعمال .

المسلم :

هو المتدين بالاسلام . والاسلام عقائد وأعمال وأخلاق بها السعادة في الدارين . أما تحصيله لسعادة الآخرة فيما بها على أحد من خفاء .

وأما تحصيله لسعادة الدنيا فقد صار في هذه العصور المتأخرة عند كثير من الناس مما يخفي ، مع أن دعوته الى تحصيل السعادة والسيادة في الدنيا في آيات القرآن العظيم كثيرة جدا .

فدعا الى العلم بمثل قوله تعالى « وقل رب زدني علما » وللفلاحة بمثل قوله تعالى : « هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها » والى الصناعة واتقانها بمثل قوله تعالى : « ان اعمل سابغات وقدر في السرد » والى التجارة بمثل قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » ؛ كما سمى العبادة ابتغاء من فضل الله فقال تعالى : « ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ».

وهو الى هذا دين السلامة و « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » ودين المحبة « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ودين الترقي بالعلم (قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون» ودين السيادة بالعدل ، والسعادة بالاحسان « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » .

الجزائري :

انما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي ، ومصالح الحاضر ، وآمال المستقبل ، فالذين يعمرون هذا القطر وتربطهم هذه الروابط هم الجزائريون .

والنسبة للوطن توجب علم تاريخه ، والقيام بواجباته ، من نهضة علمية ، واقتصادية ، وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه ، وسمعة بنيه ، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه .

طريق العلم بهذا والعمل به :

هذه الحقائق التي ذكرناها ، بها يكون الرجل ، والمسلم مسلما والجزائري جزائريا ، فتهذيب الرجل وتعليمه لا يكون الا بالعلم والعمل بها وما ذلك الا ببثها : بالمحاضرات في النوادي ، بالدروس العامة في المساجد بالخطب الجمعية على المنابر .

واذا كانت هذه طريقنا للتعليم العام فعلينا أن نجعلها في أول مانهتم به من شؤون اصلاحنا اذ لو كانت هي كمايجب أن تكون وقامت بواجباتها كما يجب أن تقوم لكنا على حال غير ما نحن عليه اليوم .

وفي كثير من الرجال المتصلين بها لنا اعظم الامال ،.

شقيقة الرجل وشريكته :

ان العناية بالرجل تستلزم العناية بالمرأة شقيقته في الخلقة والتكليف وشريكته في البيت والحياة .

هما زوجان متلازمان لا تكمل الوحدة البشرية الا بكمالهما . وما الوحدة البشرية في ضرورية الزوجين لتكوينها الا كسائر المخلوقات

الساري عليها قانون الزوجية العام • ويبتدىء ذلك في أصغر جزء وأول مادة للتكوين ، وهو الجوهر الفرد في اللسان العلمي القديم ، والكهرباء في اللسان العملي الحديث ، فانه مركب من قوتين زوجين موجبة وسالبة مصداق قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكــرون » ، ويعم هذا القانون جميع المخلوقات ومنها الانسان ، كما قــال تعالــى : « وخلقناكم أزواجا » •

هذا دليل الخلقة على ما بين الرجل والمرأة من لحمة اتصال ، ومــا لكل واحد منهما على الآخر من توقف لبلوغ الكمال •

أما أدلة ذلك من الشرع فايات عدة • منها قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » « والله جعــل لكم من أنفسكم أزواجا » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعــل بينكم مودة ورحمــة ان في ذلك لآيــات لقــوم يتفكرون » « هنّ لباس لكم وانتم لباس لهن » •

هو الاول ، وهي الثانية :

هنا ــ على ما بينهما من هذا التشارك والتلازم والاتصال ــ فأنــه هو المقدم عليها ــ والقيوم على شأنها والمسؤول عن انهاضها •

تشهد بهذه الفطرة الظاهرة في ضعف خلقها ، والتاريخ البشري بما فيه من مدنيات قديمة وحديثة كلها قامت على كواهل الرجال • ويشهد به الدين في قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » •

المراة المسلمة الجزائرية :

نرى حقا علينا بعد ما تكلمنا على الرجل المسلم الجزائري أن نتكلم شيئا عن المرأة المسلمة الجزائرية من نواحيها الثلاث أيضا •

المـــرأة :

خلقت لحفظ النسل ، وتربية الانسان في أضعف اطواره « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به . فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج اليه للقيام بوظيفتها ونربيها على الاخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة . فالتي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها .

المسلمـــة :

« لهن مثل الذي عليهن بالمعروف » فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة ، ونعرفها من طريق الدين مالها وما عليها ونفقهها في مثل قوله تعالى : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

الجزائريـة :

بدينها ولغتها وقوميتها فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد أولادا منا ولنا ، يحفظون امانة الاجيال الماضية للاجيال الاتية ، ولا ينكرون أصلهم وأن انكرهم العالم بأسره ؛ ولا يتنكرون لامتهم ولو تنكر لهم الناس اجمعون .

الطريق الموصل الى هذا :

هو التعليم : تعليم البنات تعليما يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن

فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا ــ عليهن الرحمة ــ خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها ، تعليم كل واحد لاهله بما عنده من علم .

ويوم نسلك هذا الطريق في تعليم المرأة ، والطريق السابق في تعليم الرجل سلوكا جديا نكون ــ باذن الله ــ قد نهضنا بهما نهضة صحيحة نرجو من ورائها كل خير وكمال [1] .

---

(1) الشهاب : ج ١٠ ، م ٥
غرة جمادي الثانية ١٣٨ هـ ــ نوفمبر ١٩٢٩ م .

الدروس العلمية الاسلامية بقسنطينة

يوم السبت ٢ رجب ١٣٥٢ و ٢١ أكتوبر ١٩٣٣ م تفتح ــ ان شاء الله تعالى ــ الدروس العلمية الاسلامية بقسنطينة التي يقوم بها جماعة من علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٠

تشتمل الدروس على التفسير للكتاب الحكيم وتجويده وعلى الحديث الشريف وعلى الفقه في المختصر وغيره وعلى العقائد الدينية وعلى الاداب والاخلاق الاسلامية وعلى العربية بفنونها من نحو وصرف وبيان ولغة وأدب وعلى الفنون العقلية كالمنطق والحساب وغيرهما ٠

تعطى للطلبة المحاويج اعانة من الخبز ويسكنون في بعض المساجد ٠
يجعل على كل جماعة من الطلبة عريف يضبط أمورهم ويراقب سيرتهم ٠

يشترط في كل تلميذ أن يكون حافظا للقرآن العظيم أو لبعضه كربعه على الاقل ، وأن لا يتجاوز سنه ــ اذا كان مبتدئا لم تتقدم له القراءة ــ خمسا وعشرين سنة وأن يأتي ــ اذا كان جديدا لكتاب من كبير بيته أو عشيرته للتعريف به ٠

وينبغي للطالب أن يأتي معه بفرشه وغطائه ٠

فندعو من فيهم استعداد وعندهم رغبة الى الاقبال على العلـــم والرحلة في سبيله والله نسأل لنا ولهم التيسير والتوفيق وعمل الخيــر لوجه الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مـن عبد الحميد بـن باديس

الصراط السوي : السنة الأولى العدد ٤ قسنطينة يوم الاثنين ١٩ جمادي الثانية ١٣٥٢ هـ - ٩ اكتوبر ١٩٣٣ م .

تعلم اللغـات الأجنبيـة

زيد بن ثابت قـال : أمرني رسول الله ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ أن أتعلم له كتاب اليهود ، وقال : اني واللـه ما آمن يهود على كتاب ، قال : فلما تعلمته كان اذا كتب الى يهود كتبت اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له كتابهم .

رواه الترمذي وحسنه ورواه غيره

لما نزل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالمدينـة مهاجرا كان بها وبضواحيها مـع الاوس والخزرج ـ رضي اللـه عنهم ـ اليهود ، فأقرهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكتب بينه وبينهم عهـدا ، وكانت الكتب تدور بينه وبينهم في الشؤون والمصالح من الطرفين . فكانوا يكاتبونه بالخط العبراني ، كانت لغتهم العربيـة ، ولكنهم كانوا يكتبون بالخط العبري ، فأمر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كاتبه زيـد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن يتعلم الخط العبري ليكتب لـه اليهم ويقرأ له ما يرد عليه منهم ، فيكون على يقين من كلامهم اليه وبلوغ كلامه اليهم ، وما كان ليحصل له هذا اليقين ـ وهم ليسوا بمحل الثقة ـ لـو تولى ذلك واحد منهم فقد لا يكتب عنه كل ما يقوله لهم وقـد لا يقول له كل ما كتبوه اليه ، فتعاطى زيد تعلم الخط العبراني ، فما مضى عليـه

نصف شهر حتى حذقه وتولى الكتابة عن النبي ـ صلى الله عليه وآلـه وسلم ـ والقراءة له •

الفوائد والأحكام :

الاولى : كل قوم تربط بينهم المصالح لا بد لهم من التعاون ولا يتم التعاون الا بالتفاهم والتفاهم بالمشافهة والكتابة ، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه ، وبقدر ما تكثر الاقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات والخطوط ويلزم تعلمها ، لان العلة هي الحاجة • وسواء كانت المصلحة التي تربط الاقوام عمرانية أو علمية لان المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج الى تحصيلها ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمر زيدا بتعليم الكتابة ، لان اللغة كانت عربية ولو كانت لغة أخرى لامره بتعلمها لعلة الحاجة ، والحكم يدور مع العلة • وقد جاء عن زيد من طريق أخرى ـ ذكرها الترمذي ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمره أن يتعلم السريانية • فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح علينا أن نعرف لغتهم وخطهم كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطنا

الثانية : هذه السنة أصل في اتخاذ الكتبة والتراجمة في الدولة وما يشترط فيهم من العلم والامانة •

الثالثة : كان في امكان النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ أن يكاتبهم بالخط العربي ويلزمهم أن يكاتبوه به ولكن تسامح الاسلام واحترامه لمحترمات الامم في دينهم وقوميتهم قضيا بترك اليهود يكتبون ويكاتبون بخطهم ، فأقرهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على ما أرادوا وكلف هو من تعلم خطهم • وتركها لاتباعه سنة بعده •

الرابعة : هذه السنة أصل في ضبط أمور الدولة بالكتابة فيما يصدر عنها وفيما يوجه اليها . ومثلها ضبط كل المعاملات ، فهي أصل في التسجيل على العموم . وهكذا تجد سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اذا تتبعتها ـ قد قررت ـ بالفعل ـ أصولا كثيرة من أصول المدنية والعمران ، ولهذا كان على قارئها ان يتناولها للفهم والاستنباط والتطبيق على الاحوال . (١)

(١) الشهاب : ج ٢ ، م ١١ ، صفر ١٣٥٤ هـ ـ ٥ ماي ١٩٣٥ م .

الشعب الجزائري ... لن يموت

التقرير الأدبي الذي القي بدار جمعية التربية والتعليم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين الى يوم الدين .

أما بعد : فباسم جمعية التربية والتعليم الاسلامية أرحب بكم أيها المستمعون الكرام وأشكركم على تلبيتكم لنداء جمعيتكم الاسلامية الناهضة ، وأهنئكم وأذكركم بأنكم كنتم منذ أربع سنوات خلت تجتمعون في محلات غيركم .

واليوم ـ والحمد لله ـ أصبحتم تجتمعون في داركم . ولقد كنتم ضعافا فقوّاكم الله ، وعززكم ورفع شأنكم .

أولا تثقون بالله ؟ انكم بلا شك تثقون به ، ومن وثق بالله فقد هدى الى صراط مستقيم . واذا كنتم تثقون بالله فثقوا بأنفسكم ، فان من لم تكن له ثقة بنفسه لا تكون له ثقة بالله .

واذا كنتم تثقون بأنفسكم فثقوا بنفوس مؤمنة صادقة . ولم لا نثق بأنفسنا ؟ وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها ، ومواهب نسخرها لما يرضي الله ورسوله . لنا مواهب مثل ما لغيرنا . ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا . ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا .

ولقد أعطانا الله من هذا الدين الانساني من هذا الدين العقلـــي الروحي ما يكمل عقولنا ، ويهذب أرواحنا . أعطانا منه ما لم يعطه لغيرنا ، لنكون قادة وسادة . وأعطانا وطنا شاسعا واسعا،مثل ما لغيرنا فنحن اذن شعب ماجد عظيم يعتز بدينه ، يعتز بقوميته ، يستطيع أن يكون في الرقى واحدا من هذه الشعوب . ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه .

اننا نعتصم بالحق ، ونعتصم بالتواضع عندما نقول : اننا شعب خالد ككثير من الشعوب . ولكننا ننصف التاريخ اذا قلنا : اننا سبقناها فـــي ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا ، ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبـــل أن تتكون هذه الامم وسبقنا هذه الامم في نشر الحق ، أيام كانت في ظلمات من الجهل الحالكة أيام كانت تسبح في لجج من الاوهام والخيالات . وذلك ما كنا فيه ، وما سنعود ان شاء الله اليه ، وانما علينا أن نعرف تاريخنـــا ، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود . ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الاغر والمستقبل السعيد ، الا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ، لغة الدين لغة الجنس ، لغة القومية ، لغـــة الوطنية المغروسة .

انها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الـــذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الـــذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكـــار وما في النفس من آلام وآمال . ان هذا اللسان العربـــي العزيز الـــذي خدم « الدين ، وخدم العلم ، وخدم الانسان ، هو الذي تتحـــدث عـــن محاسنه منذ زمان ، ونعمل لاحيائه منذ سنين ، فليحقق الله أمانينا .

وان الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب

حي لا يموت • لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء ، ليست له مدارس تعلمه ، وليس له رجال يدافعون عنه ، ويسوتون عليه • بل كان في اضطراب دائم مستمر ، ويا ليته كان في حالة هناء ، وكان ابناؤنا يومئذ لا يذهبون الا للمدارس الاجنبية ، التي لا تعطيهم غالبا من العلم الا ذلك الفتات الذي يملأ ادمغتهم بالسفاسف حتى اذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها ، هذه هي الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث • وما كنا لنرضى بها أو نبقى عليها وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يأبين الا أن نبقى كما ولدنا ، وتأبى ثقافتنا الا ان نرجع الى ما عليه كنا • اخذنا نعمل وهناك من سبقنا في التفكير بالعمل وهم رجال نادي (صالح باي) رحمه الله — ولا اقول كلهم — لم يكونوا يعملون بوحي من انفسهم بل كانوا يعملون بايعازات من غيرهم •

فلما بلغ الموعزون وبعض الموعز اليهم الى غايتهم انتهى كل شيء وماتت الجمعية وهي في المهد ، ولم تؤسس اقل تأسيس واصبحت نسيا منسيا ، ومضى على ذلك حين من الدهر حتى جاء هؤلاء الذين يعملون العمل الخالص لوجه الله ، فنهضوا نهضة اوجدت ما اتتم ترون ، من اشتراء محل عظيم للتربية والتعليم يضم الآن من التلاميذ والتلميذات نحو الثمانمائة ، ويضم من الكبار المتعلمين ما يناهز الستين او السبعين حسب اوقات عملهم الحيوي اللازم •

وان فيها اليوم مصنعا للنسيج، وقانون هذه الجمعية ينص عليه،وينص على تعليم العربية والفرنسية لاننا قوم نريد الحياة لانفسنا كما نحبها لغيرنا ، ونكره ان ندخل الضرر على أي كان غيرنا ، كما لا نرضى ان يدخل علينا الضرر من أي كان غيرنا ، ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم

لغة ومجد غيرنا . ولاننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحد ، وما فتحنا هذه المدرسة الا لخدمة العلم وأهله ، وتربية النشء وتثقيفه ، وللجمعية نيات اخرى تنوي ان تقوم بها في المستقبل ان شاء الله . تنوي ان تبعث البعثات العلمية الى الخارج وتسعى جهدها في تحقيق ما ينص عليه قانونها الأساسي من تأسيس المصانع والملاجيء والمحلات العامة .

هذه لمحة مختصرة خاطفة ذكرتها لكم عن تاريخكم وتاريخ نهضتكم الجليلة ايها الاخوان ، واخيرا اشكركم واشكر الله الذي هداكم، واشكر كل من سعى في تحقيق امنيتنا من رجال ونساء ، كما اشكر القائمين من رجال الجمعية والمباشرين العمل والتعليم كما لا انسى الحكيمين الانسانيين (كنوار) و (عنالى) والسيدتين (مدام سبانو) و (مدام دوره) واشكر الآنسة زريزر وهي فتاة مسلمة جزائرية أدت خدمات جليلة الى الجمعية ، أشكرهم جميعهم على ما قاموا به من جلائل الاعمال . ثم بعد هذا العرض السريع أرجو أن تذكروا دائما أن الهيئة القديمة في ظرف سنوات قامت بأعمال كبرى وأتمنى على الله أن لا تأتي الأخرى الا وقد اسستم مصنعا للاعمال ، أو ملجأ للايتام ، وأن مجلسا موفقا مثل مجلسكم هذا أوجد هذه الاعمال ، لجدير من يخلفه بان يوجد في القريب العاجل أكثر منها .

انني ابتدأت حديثي بالثقة والاعتماد على النفس واختمه بهما ، فثقوا بأنفسكم وثقوا بالله، واعتمدوا عليه وعلى أنفسكم واعملوا وكونوا خير خلف لخير سلف .

نقله من القاء الرئيس الغسيري ، ومحمد الصالح رمضان .

البصائر : السنة ٤ ، عدد ١٧١ قسنطينة يوم الجمعة ٥ جمادي الاولى ١٣٥٨ هـ الموافق ليوم ٢٢ جوان ١٩٣٩ م .

مؤتمر المعلمين الاحـرار

سينعقد مؤتمر رجال التعليم العربي الحر تحت اشراف جمعية العلماء بنادي الترقي بالجزائر يومي الاربعاء والخميس الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شهر سبتمبر الجاري لتبادل الاراء فيما يهم التعليم العربـي الحر ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه ، والغاية المنشودة من ذلـك هي التوصل الى توحيد مناهج التعليم العربي فعلى اخواننا الاساتـذة القائمين بهـذا النـوع من التعليم أن يحرصوا كل الحرص على مشاهدة هذا المؤتمر .

والواجب أن يعدوا من الآن خلاصة آرائهم ضمن تقـارير تقـدم للمؤتمر . وها هي المسائل التي نرجو منهم أن يتقدموا الى المؤتمر بآرائهم فيهـا :

١ ـ وسائل توحيـد التعليم .

٢ ـ اسلوب التعليـم .

٣ ـ أسلوب تربيـة الناشئة .

٤ ـ خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم .

٥ ـ الكتب وهل الاحسن اختيار كتب مصرية أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية .

٦ ــ رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه •

٧ ــ التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته •

٨ ــ رأيهم في الوسيلة التي تعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقي العلم •

٩ ــ تقارير مفصلة عن درجة اقبال الامة على التعليم بالمقارنةبالفترة السابقة (كل في جهته) •

والمجلس الاداري لجمعية العلماء يلح كل الالحاح على الاساتذة القائمين بسهمة التعليم الحر في أنحاء القطر الجزائري ألا يتأخروا عن الحضور في هذا المؤتمر العلمي النافع الذي ستكون روعته وفوائدهعلى مقدار جهودهم ومباحثهم ، وستكتب دعوات خاصة لكل من نعرف أسمه وعنوانه بالضبط ، ومن غاب عنا عنوانه فليعتبر هذه الكلمة دعوة خاصة ولهم الشكر •

يا لله . والاسلام والعربية في الجزائر

(كل من يعلم بلا رخصة يغرّم ثم يغرّم ويسجن)

بينما الامة الجزائرية تنتظر من فرنسا منحها حق التصويت البرلماني، مع بقائها على شخصيتها الاسلامية ، اذ أعداء الامة الجزائرية ـ وأعداء فرنسا أيضا ـ يجمعون أمرهم ، ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارا وزاريا بعقوبات صارمة على التعليم ، ليهدموا هذه الشخصية الاسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها .

علموا أن لا بقاء للاسلام الا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه واحكامه وأن لا تعليم له الا بتعليم لغته . فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء ، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضن بالرخص ، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها الا على أقل القليل .

ولما رأوا تصميم الامة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها ، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن،واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ، ورغم الزجر والتغريم ـ لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون : قانون العقاب الرهيب .

لقد فهمت الأمة من المعلمين المقصودين ؛ فهم معلمو القرآن والاسلام ، ولغة القرآن والاسلام ، لانهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة ؛ وما يجدون من مقاومة ومحاكمة • بينما غيرهم من معلمي اللغات والاديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال ؛ بين أبناء وبنات الاسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال • وهم الذين اذا طلبوا الرخص بكل ما يلزم للطلب أجيبوا بالسكوت والاعراض أو أعلن لهم بالرفض لغير ما سبب من الاسباب فهم الذين اذا طلبوا اليوم كان كما بالامس السكوت أو الرفض جوابهم • ثم اذا أقدموا على التعليم بلا رخصة كان التغريم الثقيل والسجن الطويل جزاءهم . واذا احجموا واستسلموا تم لاعداء الاسلام والعربية مرادهم وقضوا على القرآن والاسلام ولغة القرآن والاسلام قضاءهم •

فهمت الامة كل هذا وفهمت أن هذا القانون سلاح جديد حديث أشهر لمحاربتها في أعز عزيز عليها ، وأقدس مقدس لديها وهو قرآنها ودينها ولغة قرآنها ودينها وتوقعت من السلطة أن تستعمله أشد استعمال وتستغله شر استغلال ضد تعليم القرآن والاسلام ولغة القرآن والاسلام لما عرفته من قبل مقاومتها لهذا التعليم والقائمين به •

فهمت الامة هذا الشر والكيد المدبرين لدينها وقرآنها ولغة قرآنها ودينها • وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثلة للامة في دينها وقرآنها ولغة دينها وقرآنها والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله وللامة على ذلك الدفاع الى اخر رمق من حياتها •

قد فهمنا — والله — ما يراد بنا وأننا نعلن لخصوم الاسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا ، وسنمضي — بعون الله — في

تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا ، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا . وأننا على يقين من أن العاقبة ـ وان طال البلاء ـ لنا وأن النصر سيكون حليفنا ـ لاننا قد عرفنا ايمانا ، وشاهدنا عيانا ، أن الاسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع كلهم على محاربتهما .

سيرى الذين دبروا المكيدة . والذين لم يتفطنوا لها فشاركوا في تنفيذها . انهم ما أصابوا بهذه المكيدة الا سمعة فرنسا في العالم الاسلامي والعربي ، في الوقت الذي تنفق فيه الملايين على تحسين سمعتها فيها . ومكانتها عند الجزائريين في أحرج أوقاتها وأشدها حاجة الى الأمم المرتبطة بها ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله. فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تحويلا .

للدفاع عن الاسلام والقرآن ولغتهما

ندعو كل معلم مكتب قرآني أو مدرسة طلبت الرخصة من الادارة ولم تجب ، وكل معلم مكتب قرآني أو مدرسة منع من التعليم ، وكل معلم نزعت منه رخصته ــ أن يكاتبنا بما وقع له من ذلك ويعرفنا بتفصيله وجميع ما يتعلق به لنسعى في نازلته السعي المشروع .

كما ندعو كل من تعدى عليه من معلمي الديانة في المساجد أن يكاتبنا ويعرفنا لنتتبع بطريق القانون كل من روعه وانتهك حرمة الدين والمسجد من رجال السلطة كائنا من كان .

كما ندعو كل جماعة يريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الاسلام والعربية أن يكاتبونا ويعرفونا لنرشدهم الى الوجوه القانونية اللازمة .

نهج الاربعين شريفا عدد ١٧ بقسنطينة

البصائر : قسنطينة يوم الجمعة ٧ محرم ١٣٥٧ هـ الموافق ليوم ٨ ابريل ١٩٣٨ م .

عقيدة ابنِ باديس وخطّته

* مبادؤنا وغايتنا وشعارنا
* وصايا للجزائري
* قيمة الرجل بقيمة قومه
* لمن أعيش
* في الوطن والوطنية
* الجنسية القومية والجنسية السياسية
* هل آن اوان اليأس من فرنسا
* سياسة وخز الدبابيس
* كلمة صريحة
* الشمال الافريقي كيف يجب ان يعالج

في هذا القسم تقدم نماذج من كتابات ابن باديس نكشف عن عقيدته وعن خطته السياسية •

فمقال « مبادؤنا وغايتنا وشعارنا » صدر به أول عدد من أول صحيفة انشأها وهي « المنتقد » •

واذا كان ابن باديس يرى في هذا المقال « أن تكون الجزائر في كنف امة قوية عادلة متمدنة لترقيها في سلم المدنية والعمران » وهي فرنسا فلا ينبغي أن نغفل عن الزمن الذي كتب فيه هذا المقال وهو عام ١٩٢٥ •

لكن ابن باديس يحرص في نفس الوقت على اثبات وجود « الامة الجزائرية » المتميز عن « الامة الفرنسية » ، منذ ذلك العهد •

وفي الوصايا التي يقدمها ابن باديس بعنوان « ايها المسلم الجزائري تأكيدا لنفس المبادىء ونفس الخطة، اذ كتب بعد المقال الأول بنحو سنة •

لكن مقال « قيمة الرجل بقيمة قومه » الذي كتب بعد ذلك بتسع سنوات يخاطب الجزائريين المفرنسين الذين يتصورون أن « تطورهم الفردي » يضمن لهم الاعتبار ، ليؤكد لهم أن قيمتهم مرتبطة بقيمة قومهم أحبوا أم كرهوا •

أما مقال « الجنسية القومية والجنسية السياسية »، فقد يبدو غريبا في اصطلاحات هذا العصر • لكنه في الواقع تفسير عقائدي لموقف ابن باديس عندما انضم الى « المؤتمر الاسلامي » للمطالبة بمشروع بلوم

ـ فيوليت (كان بلوم رئيس الحكومة الفرنسية التي انبثقت عن الجبهة الشعبية ، وفيوليت واليا عاما على الجزائر) الذي ينص على تمكين فئة قليلة من الجزائريين من الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون • وابن باديس في هذا المقال صريح في رفضه للفرنسية ، واعتباره مشروع بلوم ـ فيوليت مجرد خطوة ، وموقف تكتيكي •

وفي نهاية المقال اشارة واضحة الى الفرصة التي اتيحت لفرنسا من خلال قبول « المؤتمر الاسلامي » بمشروع بلوم ـ فيوليت ، ومطالبته بتحقيقه ، فالخاتمة تكاد تكون انذارا لباريس بما يترتب من عواقب على رفضها تحقيق هذا الذي يعتبره ابن باديس « قليلا جدا » •

أما مقال « لمن أعيش » الذي نشر في مطلع عام ١٩٣٧ فانه يحدد دوائر العمل السياسي في نظر ابن باديس •

وهي دائرة الجزائر ، ثم دائرة المغرب ثم دائرة الامة العربية ـ الاسلامية ثم دائرة الانسانية • وهو يحدد في مقال « الوطن والوطنية » أصناف الناس ازاء الوطن •

أما تساؤله « هل آن أوان اليأس من فرنسا » فانه يمثل بداية التصلب السياسي الذي بلور بوضوح تصلبه العقائدي ، انه يسجل معرجا هاما في تفكيره السياسي ، اذ تخلى نهائيا عن الأمل في النهج الاصلاحي السياسي بالتعاون مع فرنسا •

أما المقالات الثلاث الاخيرة ، فهي تسجل بعض مجادلاته السياسية ومناقشاته لبعض التيارات السياسية ، التي تأخذ بها فرنسيون واقلية من الجزائريين ، وفيها تأكيد صريح لمقومات الشخصية الوطنية الجزائرية ولوجود الجزائر المتميز عن فرنسا ، سياسيا وعقائديا وعرقيا ولغويا وتاريخيا •

مبادئنا وغايتنا وشعارنا

بسم الله ، ثم باسم الحق والوطن ، ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي تتحملها فيه ، مستهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن اليها ساعون . والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها ، لا مقصرين ولا متوانين ، راجين أن ندرك شيئا من الغاية التي نرمي اليها بعون الله ثم بجدنا وثباتنا واخلاصنا ، واعانة اخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن .

مبدؤنا السياسي

نحن قوم مسلمون جزائريون ، في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية ، فلاننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو الى كل كمال انساني ، ونحرص على الاخوة والسلام بين شعوب البشر . وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا ، لاننا نعلم أنه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين ، وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها ، وأن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته وتجلب عليه وعليها الاضرار والاتعاب ، بل ربما حصلت لها هزاهز وفتن كما أصاب حكومة هيريو في العهد القريب . لا نعني بهذا اننا نخلط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا ، ولا أن يتداخل رجال الدين في سياستنا ، وانما نعني اعتبار

الدين قواما لنا ، وملجأ شرعيا لسلوكنا ، ونظاما محكما نعمل عليه في حياتنا ، وقوة معنوية نلتجىء اليها في تهذيب اخلاقنا وقتل روح الاغارة والفساد منا واماتة الجرائم من بيننا ، فلهذا لا نألوا جهدا في خدمته بنشر مبادئه الحقة العالية وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المحدثون ، والدفاع عنه من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله ولاننا جزائريون نعمل للشعب الامة الجزائرية واحياء روح القومية في ابنائها وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة ، والانتفاع في العالم وعليها واجب الخدمة والنفع للانسانية •

وأننا نحب الانسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا ونحب من يحبه ، نحب من يحبها ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها •

وبالاحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه ، ونبغض من يبغضه ويظلمه فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه ، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوىء كل من يناوؤه من بنيه ومن غير بنيه•

ولاننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسوية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الامة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الامتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين ، تلك الروابط التي ظهرت دلائلها وثمراتها في غير ما موطن من مواطن الحرب والسلم •

ان الامة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها ومع الاسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح ان يكون جزاءها ، فنحن ندعو فرنسا الى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية « الحرية والمساواة والاخوة » من رفع مستوانا العلمي والادبي بتعميم التعليم •

وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا في ادارة شؤون وطننا الجزائري ، ان لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر ولا أحد ينكر مالها من الآيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض وجميع وجوه الرقي الاقتصادي غير انها ويا للاسف ليست لها تلك الايادي ولا نصفها في تحسين حال الاهالي العلمي والادبي ، مع أن الذي يناسب سمعة فرنسا ومبادئها ويصدق ما ينادي به خطباؤنا ويكون أجمع للقلوب عليها هو ان تعنى بالعباد كما تعنى بالبلاد •

اننا نسعى بكل جهدنا لتحقيق هاته الامنية التي هي حقنا وفيها سعادة الجميع •

ان الامة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة لترقيها في سلم المدنية والعمران وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد ، فنحن نخدم للتفاهم بين الامتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها ولا نرفع مطالبنا أبدا الا اليها . ولا نستعين عليها الا بالمنصفين من ابنائها •

وفي جدنا واخلاصنا وشرف الشعب الفرنسوي وحريته ما يقرب كل أمل بعيد •

مبدؤنـا التهذيبي

كما تحتاج الابدان الى غذاء من المطعوم والمشروب ، كذلك تحتاج العقول الى غذاء من الادب الراقي والعلم الصحيح ، ولا يستقيم سلوك أمة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة بينها الا اذا تغذت عقول ابنائها بهذا الغذاء النفيس ، فنحن ننشر المقالات العلمية والادبية وكل

ما يغذي العقول من منظوم ومنثور من صحف الشرق والغرب وأقلام كتاب الوطن ونقاوم كل معوج من الاخلاق وفاسد من العادات ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدين الذي هو قوام الاخلاص، فأفسدته .

وعاد وبال ذلك الفساد علينا وتأخرنا من حيث يكون تقدمنا وسقطنا بما لا نرتفع الا به، لما شوهناه بادخال ما هو ضده عليه، ونحسن ما كان من أخلاق الامم حسنا وموافقا لكمالنا وتقاليدنا ونقبله، ونقبح ما كان منها قبيحا أو مباينا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه فلسنا من الجامدين في جحودهم ولا مع المتفرنجين في طفرتهم وتنطعهم، والوسط والعدل هو الذي نؤيده وندعو اليه .

مبدؤنا الانتقادي

في الهيئة الاجتماعية أشخاص تقدموا للامة وتولوا أو يريدون أن يتولوا قيادتها وتدبير شؤونها الاجتماعية سياسية أو اقتصادية أو علمية أو دينية، ولهم صفات خاصة بأشخاصهم وشؤونهم في أنفسهم وأعمال في دائرتهم وحدهم، وصفات بها يباشرون من شؤون الأمة ما يباشرون وأعمال تتعلق بأحوال العموم .

فأما صفاتهم الشخصية وأعمالهم الخاصة فلا يجوز لنا أن نعرض لها بشيء وأما صفاتهم وأعمالهم العمومية فهي التي نعرض لها وننقدها فننقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم وكل من يتولى شأنا عاما من أكبر كبير الى أصغر صغير من الفرنسويين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس اجمعين فننصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه والتنديد بمظالمه كائنا من كان، لاننا ننظر من الناس الى أعمالهم لا الى أقدارهم، فاذا قمنا بالواجب فلأشخاصهم ولهم منا كل احترام .

وسنسلك في انتقادنا طريق الحقيقة المجرده والصدق والاخلاص والنزاهة والنظافة في الكلام ، وننشر كل انتقاد يكون على هذه الصفات علينا أو على غيرنا ، على مبدأ الانصاف الذي لا يتوصل للتفاهم والحقائق الا بـه .

هذه مبادؤنا وهي مبادىء الصحافة الحرة الصادقة التي هي قوة لا غنى عنها ، ولا رقي لأمة ناهضة في هذا العصر بدونها .

هذه مبادؤنا وسيرضى عنا بها الاحرار المفكرون أصحاب الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة من الوطنيين والفرنسويين ، وسيغضب بها علينا المستبدون الظالمون والجاهلون، المحتالون وصغار الادمغة وضيقو الصدور من بغاة البشر .

ونحن بين الجميع لا نخدم الا الحق والوطن والدين ولا نسمع الا لصوت الواجب ولا نسترضي أقواما ولا نستغضب آخرين قائمين حسب الجهد بالواجب الصحافي الشريف صامدين الى غايتنا السامية وهي :

« سعادة الامة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديموقراطية »

صارخين دائما بشعارنا الرسمي وهو :

« الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء »

وعلى الله ثم على اجتهادنا واخلاصنا ومناصرة انصار المبادىء الحرة الاعتماد والاتكال [1] .

---

(1) المنتقد العدد الأول ١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ - ٢ جويليه ١٩٢٥ م.

ايهـا المسلـم الجزائـري

هاك وصايا نافعة مختصرة على وجه الاجمال ، وسنعيدها عليـــك مختصرة على وجه التفصيل.

هاك آدابا تقتضيها انسانيتــك ويفرضها عليك دينــك وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة .

هاك ما أن تمسكت به كنت انسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق كمن كل أحد بعين الاحترام والتعظيم .

حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالاعمـــال النافعة لنفسك ولغيرك ، تجنب العفوية فانها مصدر جراثيم الامراض ومثار نفور وبغض لطلعتك ، ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف البــريء منك في مثل هذه الحال .

نظف بدنك ، نظف ثوبك ، تبعث الخفة والنشاط في نفسك ،وتنبل في عين غيرك وتجلبه الى الاستئناس بمعاشرتك .

قه أهلك وولدك ومن الى رعايتك مما تقي منه نفسك، وسيرهم على نظام صحي وقانون أدبي تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشـــك ، وهدوء بالـــك .

حافظ على عقلك فهو النور الالهي الذي منحته لتهتدي به الى طريق السعادة في حياتك .

فاحذر كل (متعيلم) يزهدك في علم من العلوم ، فان العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الانسانية ودعا اليها القرآن بالايات الصريحة ،وخدم علماء الاسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى أعترف باستاذيتهم علماء أوربا اليوم .

واحذر كل (متربيط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة . يزعم التصرف بها في الكون ، فربك يقول لك اذا سألت عنه : « فاني قريب » الآية . ويقول لك : « ألا له الخلق والامر » وأن الاولياء الصالحين بعيدون : عن كل تظاهر ودعوى متحلون بالزهد والتواضع والتقوى ، يعرفهم المؤمن بنور الايمان وبهذا الميزان .

واحذر من دجال يتاجر بالرقى والطلاسم . ويتخذ آيات القرآن وأسماء الرحمان هزءا يستعملوها في التمويه والتضليل و (القيادة) و (التفريق) ويرفقها بعقاقير فيهلك العقول والأبدان .

حافظ على مالك فهو قوام أعمالك ، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته ، واطرق كل باب خيري لبذله .

فاحذر بالوعة المضاربات الربوبة في معاملاتك ومن مسارب السرف في جميع ملذاتك اذا كانت من المباحثات ، دع ما اذا كانت من المحرمات .

حافظ على حياتك ، ولا حياة لك الا بحياة قومك ووطنك ودينك

ولغتك وجميل عاداتك ، واذا أردت الحياة لهذا كله ، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل .

كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك . كن صادقا في معاملاتك بقولك وفعلك .

احذر من الخيانة . الخيانة المادية في النفوس والاعراض والإموال ، والخيانة الادبية ببيع الذمة والشرف والضمير .

احذر من التوحش فان المتوحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء والاضمحلال والاندثار ، كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدن والرقي .

احذر من التعصب الجنسي الممقوت فانه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط . كن أخا انسانيا لكل جنس من أجناس البشر وخصوصا ابن جلدتك المتجنس بجنسية أخرى، فهو أخوك في الدم الأصلي على كل حال كن محسنا لكل أحد من كل جنس ودين فدينك الشريف يأمرك بالاحسان .[1]

---

(١) الشهاب : عدد ٤٩ . صفر ١٣٤٥ هـ ، اوت ١٩٢٦ م .

قيمة الرجل بقيمة قومه *

لما قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر) نبه على معنى عظيم في ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بكله وهذا الارتباط يقتضي أمورا كثيرة منها ما جاء نصا في الحديث الشريف ومنها ما يؤخذ مما يقتضيه التشبيه ومن هذا أن الفرد منظور اليه في النظر الاجتماعي العام بما ينظر به الى أمته ؛ سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي وانحطاط ؛ أم كان أسمى منها أو أدنى فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها .

جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الاوربي والمتأدب الادب الافرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم ؛ وانساق بنا الكلام الى ما تكتسب به الامم والافراد الاحترام في عين غيرها ؛ واتفقنا على أن الامة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الامم ؛ ولا ينظر اليها الا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار . وأن الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بها من ظروف الحياة وأن تحلى

(*) الشهاب : ج ٨ ، م ١١ . شعبان ١٣٥٤ هـ ـ نوفمبر ١٩٣٥ م .

بأعظم وأحسن ما يتحلى به الراقون من أمة أخرى لا ينظر اليه الا بالعين التي ينظر بها الى أمته •

أخذ أولئك الشبان ــ وقد زالت عن أبصارهم غشاوة الغرور والغفلة لما أقنعتهم بأن قيمة الرجل بقيمة أمته ــ يقصون علي من الوقائع التي وقعت لهم هم أنفسهم ما يثبت تلك الحقيقة ويؤيدنها • قلت لاولئك الاخوان ــ وقد اندهشت مما لم أكن أحسبه يقع ــ : لا تلوموا من عاملكم بما تقتضيه نظرة اجتماعية ، ولكن لوموا أنفسكم أن جهلتم هذه الحقيقة ، وأنتم أبناء دين قررها من اول ايامه في مثل الحديث الشريف الذي افتتحنا به هذا المقال • واليوم ــ وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعمليا ــ عليكم ان تلتفتوا الى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الامم ، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الانسانية بانهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها ، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد الى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام •

لمــــن أعيــش

أيها الاخــوة :

ينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم بعضا كمــا ينبغــي أن يفهموا العمل الذي هم متعاونون عليه ليكونوا في سيرهم على بصيرة من أنفسهم وعملهم • فقد يجتمع قوم على عمل مع اختلاف منازعهم فيأخذ كل واحد ليجذب الى ناحية فتقع الخصومة ما بينهم وينقطع حبل عملهم وربما انتهى بهم الامر الى افتراق وعدوان • ولو أنهم في أول الامر تفاهمــوا لما تخاصموا •

فنحن ــ أيها الاخوة ــ الذين اجتمعنا على التربية والتعليم من معلم ومتعلم يجب علينا أن بهم بعضنا بعضا • والمعلم هو الذي يجب أن يفهمه المتعلمون ويفهمهم هو في نفسه لانه هو الذي انتصب ليبث فيهم أفكارا وأخلاقا وأدبا وهو مؤثر عليهم أثرا ما لا محالة ، فمن واجب نصحه لهم أن يفهمه في نفسه لينظروا في قبول التأثر به فيستمرون معه ، وعدم قبوله فيفارقونه ؛ وليكون من قبلوا واستمروا مجتمعين على شيء قد فهمــوه واتفقوا على البقاء فيه والتعاون عليه •

وأنا اظن نفسي مفهومــا عند من يتصلون بي مثلكم ولو كان ذلك في زمن قليل لانني ما فتئت أعلن عن فكرتي التي أعيش لها وغايتي التــي

أسعى اليها في كل مناسبة . واليوم ـ وقد كان تباين ما في بعض من يتصلون بي ـ رأيت من الواجب أن ألقي عليكم هذا البيان مختصرا في سؤال وجواب ثم أقفي عليه بشيء من الشرح والتفصيل :

س : لمن أعيش أنا ؟

ج : أعيش للاسلام والجزائر .

قد يقول قائل : أن هذا ضيق في النظر ، وتعصب للنفس ، وقصور في العمل ، وتقصير في النفع . فليس الاسلام وحده دينا للبشرية ، ولا الجزائر وحدها وطن الانسان، والأوطان الانسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الانسانية ، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام .

فأقول : نعم ان خدمة الانسانية في جميع شعوبها ، والحدب عليها في جميع أوطانها ، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ، هو ما نقصده ونرمي اليه ، ونعمل على تربيتنا وتربية من الينا عليه ، ولكن هذه الدائرة الانسانية الواسعة ليس من السهل التوصل الى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة فوجب التفكير في الوسائل الموصلة الى تحقيق هذه الخدمة وايصال هذا النفع .

ونحن لما نظرنا في الاسلام وجدناه الدين الذي يحترم الانسانية في جميع أجناسها فيقول : (١٧/٧٠) « ولقد كرمنا بني آدم » ويقرر التساوي والاخوة بين جميع الاجناس ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وان التفاضل بالأعمال الصالحة فقط. فيقول : (٤٩/١٣) « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ويدعو تلك الأجناس كلها الى التعاطف

والتراحم بما يجمعها من وحدة الاصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول : (٤/١) « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام » • ويقرر التضامن الانساني العام بأن الاحسان الى واحد احسان الى الجميع ، والاساءة الى واحد اساءة الى الجميع فيقول : (٣٥/٥) « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » • ويعترف بالأديان الاخرى • ويحترمها ويسلم أمر التصرف لاهلها فيقول : (١٥/٥) « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما اتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » • ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق فيقول (٩/٥) « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » ويحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب فيقول : (٣/٥) ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا « • ويأمر بالعدل والاحسان » • ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول : (٨٣/٢) « وقولوا للناس حسنا » •

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الاسلام ـ وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله ـ علمنا أنه دين الانسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة الا به . وأن خدمتها لا تكون الا على أصوله ، وان ايصال النفع اليها لا يكون الا عن طريقه ، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته ، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن نحايته • فاذا عشت له فاني أعيش للانسانية لخيرها وسعادتها ، في جميع أجناسها وأوطانها ، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها ، وما كنا لنكون هكذا الا بالاسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله •

فهذا ــ أيها الاخوان ــ معنى قولي : « انني أعيش للاسلام » •

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض علي تلك الروابط لاجله ــ كجزء منه ــ فروضا خاصة . وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة • فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة • وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة اليه : الى رجاله والى ماله والى حاله والى آلامه والى آماله. كذلك أجدني أعمل اذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة اليه • هكذا هذا الاتصال المباشر اجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الاعمال • وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لا بد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال •

نعم ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد انه لا بد أن نكون قد خدمناها ، وأوصلنا اليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص •

وأقرب هذه الاوطان الينا هو المغرب الادنى والمغرب الاقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط الا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة ثم الوطن العربي والاسلامي ثم وطن الانسانية العام • ولا نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها الا اذا خدمنا الجزائر • وما مثلنا في وطننا الخاص ــ وكل ذي وطن خاص ــ الا كمثل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة • فخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية • ومن ضيع بيته فهو لما سواها أضيع

وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتسعد ، وبقدر اهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط .

فنحن اذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للاضرار بسواها ـ معاذ الله ـ ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان الاقرب فالاقرب .

هذا ـ أيها الاخوان ـ هو مرادي ، بقولي « انني اعيش للجزائر »

والان ـ ايها الاخوان ـ وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للاسلام والجزائر فهل تعيشون مثلي للاسلام والجزائر ؟

نعم .. نعم .. بصوت واحد .

فلنقل كلنا : فليحيا الاسلام .. لتحيا الجزائر [1] .

---

(1) الشهاب : ج . ١ . م ١٢ غرة شوال ١٣٥٥ هـ ـ جانفي ١٩٣٧ م.

الــوطــن والــوطنيـــة

الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شيء

بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توجنا جريدة (المنتقد) الشهيرة وجعلناهما شعارا لها تحمله في رأس كل عدد منها . هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة اجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها ، وقليل جدا من يشعر بمعناها . وأن كان ذلك المعنى دفينا في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها ، لا سيما في أمة تنسب الى العروبة وتدين بالاسلام مثل الامة الجزائرية ذات التاريخ المجيد . اما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها اخرون بالسنتهم ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم ، وينكرها آخرون زعما منهم انها ضد انسانيتهم وعمومياتهم ـ فكان حقا لقراء (الشهاب) علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبين بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس ازاءها ، ومن أي قسم نحن من تلك الأقسام .

من نواميس الخليقة حب الذات للمحافظة على البقاء وفي البقاء عمارة الكون ، فكل ما تشعر النفس بالحاجة اليه في بقائها فهو حبيب اليها ، فالانسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته لما يرى من حاجته اليهم واستمداد بقائه منهم وما البيت الا الوطن الصغير . فاذا تقدم شيئا في

سنة اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه ، فاذا دخـــل ميدان الحياة وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر اليه من مستقبله ، ووجد فيهم صورة بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ومنازعه شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لاهل بيته في طفولته ولمافيه ــ كما تقدم ــ من غريزة حب الذات وطلب البقاء وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير . ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية •

فاذا غذي بالعلم الصحيح ، شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الانسانية وكانت الارض كلها وطنا له وهذا هو وطنه الاكبر • هذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنـــه . فلا يعرف ولا يحب الوطن الاكبر الا من عرف واجب الوطن الكبير . ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير الا من عرف وآحب الوطن الصغير • والناس ازاء هذه الحقيقة أربعة أقسام :

١ ــ قسم لا يعرفون الا أوطانهم الصغيرة ، وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان، وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم •

٢ ــ وقسم يعرفـــون وطنهم الكبير فيعملـــون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ولو بادخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى بل يعملون دائما على امتصاص دماء الأمم والتوســـع في الملك لا تردهم الا القوة وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم بل وعلى أممهم فهم مصيبة البشرية جمعاء •

٣ ــ وقسم زعموا انهم لا يعرفون الا الوطن الاكبر وانكـــروا وطنيات الامم • كما أنكروا أديانها ــ وعدوها مفرقة بين البشر • وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين ودلائل الفشل على تجربتهم حيث أجروا تجربتهم ولا تكاد تخفى •

٤ ــ وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها ونزلها منازل غير عادية ولا معدو عليها ، ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها ، كل واحدة منها مبنيةعلى ما قبلها ودعامة لما بعدها . وآمن ــ هذا القسم ــ بأن الانسان يجـــد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنـــه الصغير وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير ويجدها في الانسانية كلها وطنه الاكبر . وهذا الرابع هـــو الوطنية الاسلامية العادلة . اذ هي التي تحافظ على الاسرة بجميـــــع مكنوناتهـــا وعلى الأمة بجميـــع مقوماتها وتحترم الانسانيـــة في جميع اجناسها واديانها .

فهي تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقولـــه تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . وتخاطبها في جميعً اديانها بقوله تعالـــى : « لكم دينكم ولي دين » . وتخاطب جميع الامم والاوطان بقوله تعالـــى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . وبقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في اسلامه ووطنيته .

وقد أعلناها يوم قلنا على رأس جريدة (المنتقد) :

(الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شيء) وسرنا على مقتضاهـــا الى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها ــ ككل مسلم جزائري ــ حتى نلقى الله ان شاء الله .

أشعب الجزائر روحي الفـــدا ... لما فيـــك من عـــزة عربيـــة
بنيت على الديـــن أركانهـــا ... فكانت سلاما على البشرية [1]

---

(١) الشهاب : ج ٧ ، م ١٣ . غرة رجب ١٣٥٦ هـ ــ سبتمبر ١٩٣٧ م.

الجنسية القومية والجنسية السياسية

تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها كما تختلف الافراد • ولا بقاء لشعب الا ببقاء مقوماته ومميزاته كالشأن في الافراد • فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات • وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعرب بها ويتأدب بآدابها ، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها ، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات•

والجنسية السياسية أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية مثل ما كان على الآخر من واجبات اشتراكا في القيام بها لظروف ومصالح ربطت ما بينهما •

ومن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية اذا تناصفا وتخالصا فيها ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة •

فاذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بد لهما ــ مهما طال الامد ــ من أحد أمرين : اما أن يندمج اضعفهما في أقواهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فينعدم من الوجود • واما أن يبقى الضعيف محافظاعلى مقوماته ومميزاته فيؤول أمره ــ ولا بد ــ الى الانفصال •

وبعد فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا

القومية وقد دلت تجارب الزمان والاحوال على أننا من اشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية واننا ما زدنا على الزمان الا قوة فيها وتشبثـا بأهدابها وأنه من المستحيل اضعافنا فيها فضلا عن ادماجنا أو محونا . أمـا من الناحية السياسية فقد قضى قانون – ١٨٦٥ – باعتبارنا فرنسيين لكنـه نفذ وينفذ تنفيذا جائرا فيفرض علينا جميع الواجبات الفرنسية دون حقوقها فكنا كما قال الشاعر :

واذا تكون كريهة ادعى لهـا   واذا يحاس الحيس يدعى جندب

أو كما يقول مثلنا الدارج « وقت الدوا هاتوا بو نافع ، وقت الشفـا طيشوا الدرياس » . صبرنا على هذا الحيف طويلا وعالجناه بما استطعنا مرات كثيرة من جهات عديدة حتى جاء الوقت الذي نفد فيه الصبر وأعيا العلاج فقلنا البيت الثاني من قول الشاعر المتقدم :

هـذا وجدكم الصغار بعينـه
لا أم لي ان دام ذاك ولا أب

فنهضت الامة نهضتها بمؤتمرها الفخم الجليل وقررت فيه بالاجمـاع « المحافظة على المميزات الشخصية . والمطالبة بجميع الحقوق السياسيـة » وأدرك أقطاب الواجهة الشعبية [1] حقيقة هذا الطلب وأدركوا أن لا بقاء للامة الجزائرية مرتبطة بفرنسا الا اذا اعطيت حقوق الجنسية الفرنسيـة السياسية مع بقائهـا على جنسيتها القومية بجميع مميزاتها ومقوماتهـا

---

(١) يقصد بذلك « الجبهة الشعبية » Front populaire

فتقدموا لمجلس الامة الفرنسي بالقانون المعروف اليوم ببروجي بلــوم ــ فيوليت وتلقاه الذين يقدمون مصالحهم الفردية والاستعمارية على مصالح فرنسا الحقيقية بما هو معروف من معارضة بذيئة ظالمة منكرة وتلقته الامة الجزائرية التي ترضى بالارتباط بفرنسا في حقوقها وواجباتها ــ وهـــي الجنسيــة السياسية ــ ما دامت محترمة في جنسيتها القوميــة وهي تلك المقومــات والمميزات بشرط لا بد منه : وهو أن يكون التساوي تاما في جميع تلك الحقوق دون تخصيص لحق دون حق ولا تمييز لطبقة عـــن طبقــة .

ولهذا اعتبرت بروجي بلوم ــ فيوليت قليلا جدا بالنسبة لحقوقهـــا وانما تقبله اليوم كخطوة أولى فقط يجب بعد تنفيذها أن يقع الاســـراع في بقية الخطوات الى تحقيق التساوي التـــام العام الـــذي هـــو الشرط الطبيعي في سنن الاجتماع في بقاء الارتباط بصفاء واخلاص .

واذا لم يكن فلا عتب على الزمان ، وما شاء الله كان .

اننا بكلامنا هذا نعرب عن فكرة الاكثرية العظمى من الامة الاسلامية الجزائرية . ونعلن أن هنالك مـــن لا يرضيهم هذا ومن لهم نظرات أخـــرى لها حظها من الاعتبار . واننا نتحقق أن الموقف الذي يقفه البرلمان الفرنسي يـــوم تعرض عليه المسألة هو الذي يوجه الامة الجزائرية احدى الوجهتين فالمستقبل بيده . والامر لله من قبل ومن بعد [1].

---

(١) الشهاب : ج ١٢ ، م ١٢ . غرة ذي الحجــة ١٣٥٥ هـ ــ فيفريه ١٩٣٧ م .

هل آن اوان الياس من فرنسا ؟

ان الذين كانوا معنا يوم قابلنا رئيس الوزارة م• بلوم باسم المؤتمر في جويليه من السنة الماضية • يعلمون تصريحه بأننا لا نرجع بايدينا فارغة وأنه سيشرع في الحين القريب في تحضير مطالبنا المستعجلة ، ويعلمون قول م• فيولط وهو بجنبه : ستحضر قبل يوم الاحد ، ورجال ذلك الوفد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير• وقراء (الشهاب) لا ينسون ما كتبه (الشهاب) عن هذا الاخلاف وعن الوفد في عدد رجب وأكتوبر من السنة الماضية ، والذين حضروا المؤتمر الثاني هذه السنة يعلمون ما نبهتم عليه من أن فرنسا لم تجب أي مطلب من مطالب المؤتمر ، والناس كلهم اليوم يعلمون مانشرته الصحافةالفرنسية ــ رسميا ــ عن لجنة الثمانية عشر شهرا التي يرأسها قرنوت وم• ستيق وأنها بعد الثمانية عشر شهرا توفد وفودا تسأل اسئلة مدققة ؟•• فماذا فهم الناس من هذا كله ؟

أما الذين ينظرون الينا من الخارج نظر الحاكم على الأمر بما يبدو من أعمالها وسيرها فانهم يقولون : ان فرنسا تعد وتخلف لانها رأت مصلحتها في الاخلاف ، ولا يرجى منها اقلاع عنه ما دامت تعتقد مصلحتها فيه • والجزائر تنخدع وتطمع ، ويمكن أن يطول انخداعها ويستمر طمعها ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور فتقلع عن الانخداع وتقطع حبل الطمع وتتصل باليأس وما يثمره اليأس ويقتضيه •

وأما نحن ـ الجزائريين ـ فاننا نعلم من انفسنا أننا أدركنا هـذا الاخلاف العرقوبي وأدركنا مغزاه وأخذ اليأس بتلابيب كثير منا وهو يكاد يعم ، ولا تتردد في أنه قد آن أوانه ودقت ساعته ..

ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا ؟

لقد أعلن شاعرنا القومي جـواب هذا السؤال في قصيدتـه التي نشرناها في الجزء الماضي حيث قال :

ولعـل من نظم السيا ... سـة آن نغش وأن نغر
ولعـل منها آن يـدس لنـا ونجـذب للحفـر
ولعل منهـا أن يبس لنـا لنحلب كالبقـر
ولعـل منها آن نمـا ... طل كي يساورنا الضجر

كذب رأي السياسة وساء فألها ، كلا والله لا تسلمنا المماطلة الـى الضجر الذي يقعدنا عـن العمل وانما تدفعنا الى اليأس الذي يدفعنا الى المغامرة والتضحية .

أيها الشعب الجزائري .. أيها الشعب المسلم .. أيها الشعب العربي الابي .. حذار من الذين يمنونك ويخدعونك ، حذار من الذين ينومونك ويخدرونك ، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك ، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وابطال دينك وملتك.

استوح الاسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبـك
اعتمد على الله ثم على نفسك ، وسلام الله عليك .(1)

---

(1) الشهاب : ج ٦ ،م ١٣ . غرة جمادي الثانيـة ١٣٥٦ هـ ـ اوت ١٩٣٧ م .

سياسة وخـز الدبابيس

لا ننكر اننا من المعجبين بالآداب الفرنسية ، ولا ننكـر أننـا من المعجبين فوق ذلك بالصحافة الفرنسية الكبرى ، وما لها من بديع نظـام ومهرة أقلام ، وجرأة واقدام ، ولهذا يؤلمنـا ويزعجنا ويملأ أنفسنا حسرة وأشفاقا أن نرى الآداب الفرنسية وأن نرى الصحافة الفرنسية الكبرى تنحط أحيانا الى دركة الهذر واللغو والسخافة وتنغمس في حمأة التعصب الممقوت المظلم فتنكر على غيرها ما تستحسنه لنفسها ، وتعتبر الفضيلـة عندهـا رذيلة عند غيرها . ثم تلجأ فوق كل ذلك الى باب الاختلاق والافك والبهتان فتتهم الابرياء وهي تعلم أنهم أبرياء وتقلب الحقائق وهي تعلم أنها تقلـب الحقائق ، وما ذلك الا خدمة لغايات انتفاعية ، ودفاعا عن مصالـح ماديـة لبعض الهيئات التي تغذي صناديق تلك الصحف الكبرى .

وهكذا يقع التدليس والتلبيس على الشعب الفرنسي ، فيبقى بفضـل صحافته الكبرى المتحاملة عن غرض أو عن استئجار ، جاهلا حقيقة ما يجري بالبلاد المرتبطة مع وطنه ارتباطا وثيقا ، غالطا في حكمه عليها ، غير متصور حقيقة ميولها وعواطفها وآمالها وآلامها .

وكلامنا اليوم مع أم الصحف الباريسية الكبرى ، العجوز الوقـورة جريدة الطان . فقد سولت لها النفس الامارة بالسوء أن تسود مقالا عـن الجزائر والجزائريين بمناسبة الاجتماع الذي عقدته بباريس لجنـة البحر المتوسط الجديدة . وهي التي تجمع نواب الوزارات ورجال الحكـم فـي

مستعمرات فرنسا الحماية والانتداب ، ومهمتها النظر في المشاكل المشتركة التي تهم سياسة فرنسا الاستعمارية لكي تتوحد تلك السياسة وتسير في خطة متماثلة بكل الاقطار التي يخفق على أرضها العلم الذي يقولون انه يمثل بأحمره وأبيضه وأزرقه الحرية والأخوة والمساواة .

فتحريش اعضاء هذه اللجنة ، ولحملهم على سلوك سياسة الشدة والعنف والجبروت مع الرجال الذين دانوا بطاعة فرنسا ما يزيد عن القرن ، وسقطوا في كل ميادين القتال ألوفا مؤلفة حول رايتها ، ولاجل غايتها ، ولتشويه الحقائق وألباس الحوادث غير لباسها الطبيعي، كتبت الطان مقالها المأسوف له والمتحسر عليه ، ونشرته في عددها الصادر يوم ٢٠ فيفري السالف .

فهي تقول وأنف الحقيقة راغم : ان المهيجين الذين هدأ فورانهم أثر زيارة مسيو ريني قد عادوا فجأة الى ميدان الاثارة . ومن الممكن أن يقودوا الامة الى فاجعة قسنطينة المؤلمة .

فالدكتور ابن جلول يتهم في جريدته (الانطانت) الادارة الفرنسية بأنها تريد أن تغمر الجزائر في ميدان النار والدماء .

ويؤيده في هذا الطريق ابن باديس والطيب العقبي وهما على رأس جمعية العلماء التي لمت في نادي الترقي شمل الذين اتفقوا على نسف نفوذ فرنسا باستعمال شتى الطرق . وفي كل مكان نجد نشاط دعاة المذهب الوهابي واعوان الجامعة العربية الذين يدينون بفكرة شكيب ارسلان ، والذين يتلقون تعاليمه من لوزان على طريق القاهرة . ومن أهم مطالبهم حرية الوعظ في المساجد وحرية التعليم بدون مراقبة .

فمن ناحية يقع الحث على عدم دفع الضرائب . ومن ناحية أخرى تجمع

الاموال الطائلة لشراء الديار رغم انها تستعمل مراكز دينية ، وأنهـا فـي الحقيقة تستعمل مركزا لتهذيب الناشئة تهذيبا اصلاحيا متعصبا • ثم وقـع استغلال موت الامير خالد سليل الامير عبد القادر ، وقد توفي بدمشـق فوقعت الدعوة لاقامة صلوات عمومية لاستنزال الرحمة على روحه •

وهناك الشيوعية وهي لا تستدرج الناس باسم المذهب الشيوعي • انما تستدرجهم باسم المصالح المختلفة فتجـذب الى الحـزب الشيوعي مستخدمي السكك الحديدية ورجال المراسي والعملة • وجمعية كوكـب شمال افريقيا الشيوعية ترسل افلاما تظهر النظام الشيوعي في أبدع صوره • فناحية قسنطينة وتبسه وهي القريبة لتونس والتي يمكن للدعاة أن يتجولوا بسهولة بينها وبين البلاد التونسية ، وناحية تلمسان ، وهي مركز التعصب الديني الحاد ، هما الناحيتان اللتان تحوم حولهما الريب بشدة واللتـان سيدلي مسيو لودو عنهما ببيان امام اللجنة العليا •

هذا كلام جريدة الطان •

ولقد كنا نمر كراما بهذا اللغو لو أنه صدر من صحيفة صغيـرة ، أو جريدة لا تمثل طبقة ممتازة من كبار الفرنسيين ، أما وقد صدرت هـذه الأقوال المستهجنة من صحيفة الطان ، فالسكوت عنها يعد خوراً ، ان لم يعتبر جريمة •

فلنأخذ أقوال الطان من أولها ، ولنعمل فيها معول الحقيقة ــ وللحقيقة معاول هدامة في بعض الاحيان ــ ولنقل نحن أقوالنا التي تخالف أقوالها على خط مستقيم • ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين •

نقول نحن ان الهيجان الذي تريد الطان أن تجعله مـوجـودا الان

بالجزائر ، لا وجود له الا في المخيلـة المريضة المخروفـة التي أملت ذلك الفصل • نعم هنالك استياء عمومي في طبقة الفلاحين الذين لم يجد أكثرهم من الاعانة الموعود بها الا ما يجده الصادي في السراب • وهنالك استياء في الرأي العام مـن ابطاء الاصلاحات الموعود بها والتي أجمعت الامة على المطالبة بها • وهنالك تذمر عمومي من الحالة الحاضرة سواء من ناحيتهـا السياسية أو من ناحيتها الدينية والاقتصادية •

انما الهيجان الذي تصوره الطان كأنه الغول المهاجم لابتلاع الارواح انما الهيجان التي تقول بأنه سيكون من نوع حوادث قسنطينة المـؤلمـة ، فذلك ما نعني وقوعه بكل قوة وبكل شدة ، ولن يكون الا اذا عملت يـد المحرشين الاجانب الاوروبيين على أثارته وتهيئة أسبابه ، خدمة لاغراضهم الخاصة • والرأي العام الاسلامي لا يتبع كل ناعق ولا يقدم بسهولة مثـل هذه الاعمال الا اذا استثير وأمعن في استثارته ولم يبق في قوس صبـره منـزع •

ثم لنتول الدفاع متطوعين عن النواب وهم الاغنياء عن دفاعنا ، فمتى كانوا مهيجين أو دعاة للفتنة والاضطراب وهم الذيـن بحت أصواتهم في المناداة بوجوب التآخي والتضامن مع الفرنسيين لاجل الاحراز على نفس الحقوق الفرنسية ، بواسطة فرنسا وحدها ، ولو بتضحية بعض الشخصيـة الاسلامية ــ وهذا ما لا نوافق عليه نحـن ــ وأقوالهم أمام وزير الداخلية وكتاباتهم كلها على هذا المنوال •

لكن هؤلاء السادة قد ألفوا منذ أمد طويل سياسة البني وي وي [1]

(١) عبارة جارية في الجزائر بمعنى الذين يوافقون على كل شيء يصدر من سادتهم بكلمة « oui » الفرنسية (نعم) .

أولئك الذين لم يرتفع لهم صوت ولم تنبس لهم شفة بكلمة في مجال الدفاع عن الحقوق • فان هم سمعوا كلمة المتذمر وان هم شاهدوا حركة المستاء ، نادوا بالويل والثبور وقالوا ان هذه الا حركات ضد فرنسا قد نضجت في القلوب وانفجرت بها الصدور •

ثم ما شأن جمعية العلماء في هذا الامر ؟ ـ ان سمحت الطـان لنفسها بحشر ابن جلول في ميدان التهييج السياسي ـ وهو بريء منه ـ فالرجـل على كل حال رجل سياسة . ويمكن مصادمته ويستطيع النضال عن نفسـه في هذا الميدان • أما جمعية العلماء المسلمين وهي الدينية التهذيبية البحتة وهي البعيدة كل البعد عن السياسة والسياسيين ، وهي التي لا علاقة لها مع الشعب الا في ميدان الاصلاح الديني والتهذيب الاجتماعي ورفـع الامية عن القوم ، فما اسخف الطان وما أسخف ذوي السخائم الذين أملوا على الطان تلك الاقوال في شأنها •

هذه الجمعية جمعية العلماء صحفها منشورة ، وأقـوالها مأثـورة ، وأعمالها مشهورة ، فليأت هؤلاء الأفاكون بكلمة أو قول أو فعل يمكن به اتهام الجمعية أو افراد الجمعية أو القائمين بأمر الجمعية بأنهم يعمدون الى التهييج أو يعينون على التهييج ـ هذا ان فرضنا جدلا أن الهيجان موجود•

وان طالبت الجمعية بالقاء الوعظ في المساجد ، فقديما كانت المساجد مفتوحـة في وجه علمائها ودعاتها وقديما عقدت الجمعية مجالس الدعوة والارشاد تحت رعاية ورئاسة رجال الحكومة والبلدية فهل يستطيع أحـد من رجال البوليس أو من رجال الحكومة الادعاء بأن الجمعية قد حادت ولو مرة واحدة في كل حياتها عن سلوك طريق الارشاد العلمي الديني سـواء بالمساجد او المجتمعات العامة واشارت على الناس ولو من طرف خفـي بتأييد المهيجين واعانة الهيجان ؟

هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

ثم ما شأن الأمير شكيب ارسلان ، وما شأن الوهابية ، وما شأن الجامعة العربية في كل هذا ؟

انهم يعلمون علم اليقين أنه ليس في الحركة الاصلاحية ولا في الحركة السياسية في القطر الجزائري من أصبع خارجي كيفما كان أمره ومهما كان مصدره ، ولقد قامت لديهم الادلة والبراهين على ذلك . والله لو أنهم وجدوا برهانا ولو ضعيفا على خلاف ذلك ، ولو وجدوا حجة ولو واهية على وجود أي شيء من هذا القبيل ، لكانوا قد بطشوا بنا قبل اليوم بطشا ، ولكانوا قد محقوا هيأتنا من عالم الوجود بعد محق أشخاصنا .

لكن ولاة الأمور قد علموا جلية الأمر ، وتميز لهم خبيث القول من الطيب ، وتأكدوا أن ليس في حركتنا الدينية ولا في الحركة السياسية من يد خارجية . وأننا لنتحداهم تحدي القوي المؤمن بحقه أن يأتونا ــ حكومة وأفرادا ــ بما يثبت للناس خلاف هذا . ونكون عندئذ محجوبين ويكون لهم الحق في كل ما يفعلون .

فان لم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، فمثل هذه الاقوال التي لا قيمة لها ، والتي لا يقصد بها الا حشر أسماء مفزعة في ميدان البحث قصد التهويل والتهويش ، ليست لها من قيمة أي قيمة ، وأنها لتزيد الذي يأتي بها في حديثه سخفا على سخافته ، وضعفا على ضعفه .

أما ما أشارت اليه الطان من أمر ابتياع الديار فانها تقصد به الدار التي ابتاعتها جمعية التربية والتعليم والتي قامت بفضل جهود الامة وتضحياتها المثمرة . فتالله لو أن كاتب الطان شاهد الامة وهي تجود بما

لديها من مال قليل ، وشاهد تلك الدار وما تحتويه ، لخجل من نفسه ولندم على قوله ولكفانا مؤونة الرد عليه ... أسست فرنسا في بلادنا وأسست جمعياتها مئات الآلاف من المعاهد والديار التي من هذا القبيل فقال قائلهم ان الفرنسيين لم يعملوا شيئا مذكورا في هذا الميدان ، وطالبوا بالمزيد .ولم يتجاوز ما أسسه الجزائريون أربعة أو خمسة من هذه الديار ، فأصبحت هذه الديار متهمة وأصبحت خطرا على المجتمع ونفوذ فرنسا ، تؤكد للطان أننا نريد أن نخرج من هذه المعاهد ناشئة مهذبة تعمل جهدها لكي تكـــون بعيدة عن مثل هذا التعصب الممقوت .

ومن اعجب العجب استشهاد الطان الرصينة ــ عادة ــ على صحـة أقوالها بالدعوة التي انتشرت في البلاد الجزائرية لاقامة الصلوات العامة أو حفلات الذكرى للامير خالد رحمه الله .

فتالله ان هذا لمؤلم ، ومؤلم جد الالم .

اذا سلمنا لصحيفة الطان المرتبطة برجال الدين ، أن تستهجن مسلكنا الديني ، واذا سمحنا لكتاب الطان الذين اشبعوا روح الحرية أن يقاوموا مطالبنا في الحرية ، واذا سمحنا للذين يدعون الموت في سبيل تحريـــر الشعوب أن يقاوموا احراز هذا الشعب أي حق من حقوقه الضئيلة ، اذا سمحنا مكرهين بكل هذا فكيف نسمح لجريدة أمة اقامت في مختلف بلادها فوق الألف تمثال لتخليد ذكرى عظمائها في ميادين الحــرب والسياسة والقلم والفــن ، ان تقاوم امتنا عندما رأت أن تقيم ــ لا التماثيل ــ انمـا صلوات عامة وابتهال لله أن يتقبل خالد برحمته ورضوانه ؟

حتى الاعتراف بالجميل ، وحتى ذكر الموتى يجب أن ننساه لكي يرضى عنا هؤلاء السادة أصحاب المنطق المستقيم .

اسمعوا • اننا لن نرضيكم أبدا وأننا لن نعمل على ارضائكم • اننــا لن نشاركم أبدا ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة آيديكم• نحن سائرون على منهاجنا وفي طريقنا • لا يضرنا صراخكــم ولا ينفعنا سكوتكــــم • فقولوا ما شئتم ، فلن تنالوا منا منالا ولن تتزعزع عقيدتنا • انما ننصحكم نصيحة خالصة أن لا تعودا لمثل هذا العمل الممقوت ، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبا بفقد الشعب لصبره ، واخراج الحليم عن حلمه • واننا لنســـد في أوجهكم هذا الباب أن كسرتموه والامر بعدئذ لله [1]

---

(١) الشهاب : ج ١٢ • م ١١ . غرة ذي الحجة ١٣٥٤ هـ ـ مــارس ١٩٣٦ م .

كلمة صريحة

حقنا اننا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته ، فمن فوضى في الدين الى فوضى في الأخلاق، الى فوضى في الاقتصاد، وزادتنا الايام على كل ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات وأشدها تأثيرا على حياة الامة وهي فوضى التكلم باسم الامة .

فما من متكلم في أي مناسبة من المناسبات الا ورفع عقيرته مدعيا بأنه انما يمثل الامة الاسلامية قاطبة في هذه البلاد ، وان الكلمات التي يقولها من عند نفسه انما هي كلمة الحق وقولها الفصل . ولو انهم اقتصدوا في القول ولم يلجوا باب الغلو والاسراف ، وقالوا اننا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا ، أو باسم الهيئة التي ننتمي اليها ، أو باسم الجماعة التي نحن منها أو باسم الذين يشاركوننا في الرأي والتفكير ، لكان قولهم أصوب ، ورأيهم أصلح وكلامهم أقرب الى نفوس السامعين من رجال الحكومة ومن رجال الشعب .

واننا نتكلم اليوم حول هذا الموضوع اثر ما رأيناه من الحملة التي اجمعت الامة على مجابهة جريدة الطان بها ، وأثر اجتماع اللجنة الوزارية الاسلامية بباريس .

قال البعض من النواب المحليين ، ومن الاعيان ومن كبار المتوظفين بهذه البلاد ، ان الامة الاسلامية الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة ، لا وطن لها الا الوطن الفرنسي ، ولا غاية لها الا الاندماج الفعلي التام في فرنسا ، ولا أمل لها في تحقيق هذه الرغبة الا بأن تمد فرنسا يدها بكل سرعة، فتلغي جميع ما يحول دون تحقيقهذا الاندماج التام. بل لقد قال أحد النواب النابهين أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر ، وفتش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر وأخيرا أشرقت عليه أنوار التجلي فاذا به يصيح : فرنسا هي أنا حقا ان كل شيء يرتقي في هذا العالم ويتطور ، حتى التصوف فبالامس كان يقول أحد كبار المتصوفين :

فتشت عليك يا الله وجدت روحي أنا الله

واليوم يقول المتصوف في السياسة :

فتشت عليك يا فرانسا وجدت روحي أنا فرانسا

فمن ذا الذي يستطيع بعد اليوم أن ينكر قدرة الجزائري العصري على التطور والاختراع ؟

ان هؤلاء المتكلمين باسم « المسلمين الجزائريين » والذين يصورون الرأي العام الاسلامي الجزائري بهذه الصورة ، انما هم مخطئون يصورون الأمور بغير صورتها ويوشكون أن يوجدوا حفرا عميقة بين الحقيقة وبين الذي يجب أن يعرفها . فهم في واد والامة في واد ، ويريدون أن يضعوا رجال الادارة العليا في واد ثالث .

لا يا سادتي .. نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة ، بل ندعي اننا نتكلم باسم اغلبية الامة فنقول لكم ولكل من يريد ان يسمعنا ، ولكل من يجب عليه ان يسمعنا ، ان اراد أن يعرف الحقائق ولا يختفي وراءكم الخيال نقول لكم انكم من هذه الناحية لا تمثلونا ولا تتكلمون باسمنا ، ولا تعبرون عن شعورنا واحساسنا اننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة ، فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الامة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية . ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها واخلاقها ، بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل أمة في الدنيا .

ثم ان هذه الامة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها ، وفي دينها ، لا تريد ان تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة ، والذي يشرف على ادارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية .[1]

---

(1) الشهاب : ج ١ ، م ١٢ . غرة محرم ١٣٥٥ هـ ــ ابريل ١٩٣٦ م .

حـول كلمتنـا الصريحـة

لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد الاسبق من الشهاب أثرها المطلوب ، وكان لها الدوي العظيم الذي كنا نتوقعه لها • فتلك كانت أول مرة فيما نعلم ، جوبهت فيها الحكومــة وجوبه فيها رجال السياسة بحقيقة ناصعة ، هي عين الحقيقة التي تعتقدها الامة ، وفيها بيان لعواطف واحساس وشعور الاغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائري •

فأما الذين طهرت سريرتهم وخلصت نيتهم، فقد حبذوا خطتنا وشكروا لنا صراحتنا ، وحمدوا لنا هذا الموقف الذي وقفناه ضد محاولات التجنيس الخائبة ، ومحاولات هدم القومية واللغة والدين المجرمــة ، اذ بينّا في جلاء ووضوح اننا مع احترامنا للسلطةالفرنسية، واطاعتنا لقوانين الجمهورية نريد ونستطيع أن نحافظ على ذاتيتنا الخاصة ، وما فيها من مميزات اللغــة والدين والاخلاص والثقافة ولا نريد بأي حال من الاحوال ولا نستطيـــع أن ننسلخ طوعا واختيارا أو كرها وجبرا على تلك الذاتية ، وما فيها مـــن مميزات ، وما لها من حقوق •

وأما الذين في قلوبهم مرض ، والذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأنكروا ما لهذه الامة من مجد ، وما لها من تاريخ ، وما لها من روابط تجعل منها أمة متحدة ومتجانسة لها من الاتحاد والتجانس ما لأكثر الأمم تجانسا واتحادا في كل بلاد الارض فاولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع

الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر ومنهم من انتقد ومنهم من رد ، ومنهم من أفحش وأقذع ، وان الى الامة التي أنكروها ايابهم ، وان عليها — مهما تجاهلوها — حسابهم .

ان كلمتنا الصريحة قد وضعت الكثير من الرجال على المحك، فمنهم من ظهرت نفسه من مكنون، ومنهم من انطوت جوانبه على حمأ مسنون.

وأنا لنشهد أن من أكمل الرجال الذين رأينا فيهم بهذه المناسبة ، الهمة العالية ، وشرف النفس ، وطهارة الضمير ، الاستاذ فرحات عباس الصيدلي ، والعضو البلدي والعمالي بسطيف .

كان هذا الرجل الأبي من أهدافنا في مقالنا (كلمة صريحة) وهو الذي أخذناه عن مقاله (فرنسا هي أنا) وقلنا له ولمن معه انكم عندما تسعون لسياسة الاندماج ، وتحبذون التجنيس ، وترضون ضياع حقوقنا الاسلامية مقابل حق الانتخاب ، وتريدون — خلافا للطبيعة — أن يصير جمهور المسلمين بهذه البلاد جمهورا فرنسيا بحتا ، لا يختلف عن الجماهير الفرنسية في شيء ، انكم عندما تسعون وتحبذون هذا لا تمثلوننا ولا تتكلمون باسمنا ، وانكم في واد والامة في واد اخر .

فالسيد فرحات عباس ، لم يتألم ولم يتكدر ، وسلك مسلك كبار رجال السياسة الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة الحق، فزار ادارة الشهاب وأكد لها تقديره لجهودها ، وجرت له مع صاحب الشهاب محادثة دلت على سمو أدبه وعلو ركبه في عالم السياسة والتفكير .

ثم نشر مقالا في جريدة (لا ديفانس) الصادقة الثابتة الجسورة يبين فيه نظريته ، ويشرح فيه فكرته الاجتماعية التي بنى عليها سلوكه السياسي وسيجد قراوءنا تعريب هذا المقال آثر فصلنا هذا .

ولقد تولت بعض الدوائر مهاجمتنا ، مستترة وراء جريدة النجاح ، ووراء ورقة تدعى (صدى الصحافة الاسلامية) ، ولقد كنا ننتظر من تلك الدوائر التي هاجمتنا ، مناقشة هادئة تتناسب مع وقارها ، وكنا ننتظر منها نضالا بأسلحة حادة ، لكن خاب أملنا في الامرين • فالمناقشة كانت صبيانية الشكل والموضوع، والاسلحة كانت عتيقةمفلولة أبلتها كثرة الاستعمال•

فأما السلاح الذي استعمل ضدنا في النجاح فهو أسئلة وضعها رجل كبير ، وأمضاها رجل صغير وقد حسب الذين قدموا لنا هذه الاسئلة أنهم يحرجوننا بوضع البحث فوق ميدان الاستقلال ، كأننا قد رفعنا علم العصيان ونادينا بفصل الجزائر عن فرنسا من الان •

فهو يسألنا اولا ، : متى كانت حدود الجزائر على ما هي عليه الان ؟ واننا نجيبه لنفرض أن حدود الجزائر لم ترسم على صفتها الحالية شرقا وغربا الا منذ نحو مائة عام ، فهل له أن يجيبنا متى كانت حدود فرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا والمجر ورومانيا ويوغوسلافيا واليونان وبلغاريا كما هي الآن ؟ وهل لم تتغير المرات العديدة خلال هذه المائة عام ؟

ثم يسألنا : متى كانت بلاد الجزائر مستقلة ؟ ونحن نقول له : ان ضربنا صفحا عن الدول الاسلامية المستقلة التي نشأت وازدهرت بالقطر الجزائري ، وسلمنا بأن القطر الجزائري بصفته الحالية لم يكن مستقلا في وقت من الاوقات ، فهل لحضرة السائل أن يجيبنا : متى كانت دولة تشيكوسلوفاكيا مستقلة ؟ والى أي عهد يرجع استقلالها ؟

ويسألنا أخيرا ، ما هي وحدة اللغة التي تكلمنا عنها في كلمتنا الصريحة فهل هي اللغة العربية ، والحال ليس كذلك ، كما يقول ، أم ماذا ؟

فهل نستطيع أن نجيبه بأن لغة هذا الوطن ليست عربية بدليل أن

جريدة النجاح تنشر بلغة الصين ، وأن الجريدة الرسمية الحكومية تنشر الى جانب نسختها الفرنسية نسخة بلغة النبط والكلدانيين ؟ أم نقول له أن الواقع يثبت بأنه لا يوجد في ارض الجزائر الا واحد في المائة فقط من السكان المسلمين لا يتكلم العربية ثم نسأله : هل لا توجد في فرنسا الى جانب اللغة الفرنسية الرسمية لغات أخرى ذات آداب ولها صحف سيارة ويتكلمها الملايين من الناس ، وخاصة بالالزاس ، وبجهات الفلاندر ، وببلاد ابروتانيا التي يقوم أهلها بحملة تكاد تكون ثورية لاجبار الحكومة على تعليم لغتهم بالمدارس ، وببلاد البروفانس وضواحي مرسيليا ، وبجزيرة كورسيكا ؟

وهل توجد وحدة اللغة ، كما توجد بالقطر الجزائري ، في رومانيا ويوغوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا ان لم تتكلم الا عن هذه البلاد ؟

وأما السلاح الذي استعمل ضدنا بصدى الصحافة الاهلية ، والذي خرج من معمل جريدة الهك القديمة وكتب بأقلام محرريها ، ونحن لا نشرفهم بذكر اسمهم ، احتقارا لاجهلا ، فهو ذلك الشتم البذيء الرقيع ، سلاح الاسافل العاجزين ، فصاحب الشهاب عند أولئك السادة : أحمق ، مجنون ، أخرق ، جاهل ، غبي ، مجرم وهو بو حماره الخارجي الذي أثار افريقيا قصد تأسيس دولة فوق الخرائب ، ولم يتورع الكاتب شلت يمينه عن نبش قبر عبد المؤمن بن علي قدس الله روحه ، لتبشيع سياسته والحط بكرامته .

ثم يصف ذلك الكاتب الامة الجزائرية بكل اوصاف الجهل والفوضى ، والتهديم والتخريب ، حتى ليكاد الانسان يعتقد أن ذلك الرجل الذي استؤجر لينال منا ، انما استؤجر لكي يقول للناس في العالم أجمع : انظروا كيف اصبحت حالة المسلمين الجزائريين بعد أن حكمت فرنسا بلادهم نيفا ومائة من السنين .

ولو كنا نستطيع أن ننحط الى تلك الدركة السافلة ، ونجاري المحررين في اسلوبهم لقلنا لهم انهم انذال ، سفهاء ليس لهم ضمير ، ولا يعرفـون شهامة ولا كرامة . لكننا لا نقول لهم هذا ، ولا نوجه لهم امثال هذا الكلام فلنا من ادابنا الاسلامية ، ولنا من شهامتنا العربية ما يغنينا عن الانغماس في مستنقعهم النتن .

فدعهم هم والذين يسلون عليهم تلك السخافات الرقيعة ، يقفون أمام الرأي العام بهذه البلاد ، ولننظر كيف يكون عليهم قاسيا اليما .

اننا أكدنا في (الكلمة الصريحة) رغبتنا في الاحتفاظ بكياننا العربي الاسلامي ، فوق أرض هي أرض آبائنا وأجدادنا ، مع احترامنا التام للسلطة وخضوعنا لقوانين البلاد .

لكن خصومنا ، كما قلنا انفا ، أرادوا أن يفهموا من كلامنا أننا نريـد الاستقلال ورأوا أنهم يحرجوننا اذا وضعوا البحث على بساط الاستقـلال حتى اذا زل بنا القدم فوق هذا البساط الاملس استنزلوا علينا نقمة الحكومة وطلبوا أن نعامل معاملة الثائرين المهيجين ، وان نذهب ضحية قوانين روني وما سبقها .

لكن خابت آمالهم ، فنحن قوم لا تتأخر عن الخوض في مثـل هذه الميادين ، وأنهم لا يزعجوننا ان جرّونا للبحث في مسألة الاستقلال .

ان الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا . وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنفعة والحضارة ، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم الى الابد . فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن انها تزداد تقلبا مع التاريخ [1]

---

(١) الشهاب : ج ٣ م ١٢ . غرة ربيع الأول ١٣٥٥ هـ ـ جوان ١٩٣٦ م .

الشمال الافريقي

كيف يجب أن يعالج

يقلق بال السياسة الفرنسية اهتزاز الشمال الافريقي واضطرابه وتذمره واحتجاجه ، ويقلق بال السياسة ذلك من القطر الجزائري على الخصوص •

لقد أدى هذا القلق السياسي الى التفكير الجدي في هذا الشمال وفي الجزائر الفرنسية كما يقولون • وانتهى هذا التفكير الى آراء في الداء ــ حسب تسميتهم ــ وآراء في العلاج وأخطأت كلها في معرفة الداء على وضوحه وفي معرفة العلاج على قربه •

فأما الداء ــ كما يسمون ــ فقال قوم : هو اليد الاجنبية ، وقال اخرون ــ هو الشيوعية الافرنسية ؛ وقال غيرهم : هو الاتحاد الاسلامي والوحدة العربية • وماذا نقول نحن في هذه الاراء ؟

نقول بكل صدق وصراحة تعرفهما الدوائر الحكومية منا ــ أولا : أن اليد الاجنبية التي يعنون هي يد موسوليني وهتلر ، بعد ما كانوا يعنون بها قبل التحالف الفرنسي الروسي ، يد موسكو • وأنا على يقين تام من أن الاوطان الافريقية الثلاث التي تهم فرنسا لم تتصل يوما بيد أجنبية لا من موسكو ولا من روما ولا من برلين • وأعرف عن نفسي وعن رجال هذا الشمال الافريقي اخواني ، أننا نأبى أن نكون آلة في يد أي كان من

الامم التي تكيد لفرنسا اباء وترفعا يمليهما علينا عزة الاسلام وشمم العروبة.

وثانيا – ان الشيوعية الفرنسية . وان فسحت لها الواجهة الشعبية المجال ، فانها لم تستطع ولن تستطيع أن تتمكن من أوساط شعبنا أوتحوز أكثر مما حازته من النزر اليسير جدا من اطرافه ، ما دام الشعب يعتقد ان مبادئها الاساسية لا يتفق كثيرا منها مع الاسلام . هذا رغم ما يبديه رجالها مما يستحقون عليه الشكر من العطف على ضعفنا ومقاومة الظالمين لنا . لكن الشكر والاعتراف بالجميل شيء والتأثر بالمبادىء والانقياد للحزب شيء اخر .

وثالثا – ان الاتحاد الاسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي والمعنى الادبي والمعنى الاخوي هما موجودان . تزول الجبال ولا يزولان ، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والاسلام . واما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود الى اليوم لهما .

وأما العلاج فقد كادت كلمة القوم تتفق على أنه الضغط والارهاق واستعمال القوة والشدة . وماذا نقول نحن في هذا العلاج ؟

نقول – بالصدق والصراحة اللذين تعرفهما منا الدوائر الحكومية انه علاج يسكن الشعب شيئا ما ، حينا ما ، ولكنه يزرع في القلوب بغضا وحقدا ويملأ الصدور ثورة وحماسا ، وما مآل ذلك بطبيعة الامتلاء وطول الزمان – الا الانفجار ، ولا يدري الا الله على من تكون عواقب ذلك الانفجار .

هذا ما يفكره الساسة في الداء والعلاج وقد زيفناه .

أما نحن – ونحن أعرف بأنفسنا – فاننا نتيقن أن هذه الأمم الاسلامية

العربية استيقظت مـن سباتها وهبت للنهوض من كبوتها ، وشعرت لكرامتها وأخذت تذكر ماضيها ايام حريتها واستقلالها ، وهو غير بعيد في الماضـي عنها ، فانبعثت تعمل لفك قيودها ونيل حريتها وتبوء منزلتها اللائقة بهـا كسائر الامم التي ليست هي ـ في قوميتها وتاريخها ـ دونها . غير انهـا تريد أن تكون مع فرنسا وتكون فرنسا معها كأستاذ نصوح وتلميـذ بار يتبادلان الصداقة والاحترام ويتعاونان في الرخاء والشدة .

هذا ـ لعمر الله ـ هو حقيقة نفسية هذه الشعوب ، وهذا هو سبب ثورتها على الظلم وابائها من استمرار الحال على ما كان .

وما من علاج بعد هذا ـ والله ـ الا تبديل السياسة العتيقة الرثـة البالية بسياسة جديدة تعترف لهذه الشعوب بكيانها القومي ـ أمامها من مجال العمل للتقدم والرقي ـ ، وتنيلها أعظم قسط من التحرير وتشعرها بأنها تساندها لتبلغ رشدها ، فتكون بدورها يـوم رشدها التـام عضدا ـ وأي عضد ـ لها .

فهل يستطيع الساسة هذا العلاج ؟

نحـن الجزائر ،

فاذا أرادت فرنسا أن تحافظ عليها فلتحافظ على قلوبنا (١)

---

(١) الشهاب : ج ٩ ، م ١٣ . غرة رمضان ١٣٥٦ هـ ـ نوفمبر ١٩٣٧ م .

نداءات سياسية

* عـش كـريمـا او ...
* برهنـوا للعالـم على انكـم تستحقون الحيـاه .
* قاطعوا الاحتفـالات بمرور قـرن على سقـوط قسنطينة في يـد الاحتـلال .

تشتمل كتابات ابن باديس غالبا على لهجة حادة ، ملتهبة ، تتوجـــه الى العاطفة ، دون أن تغفل مخاطبة العقل .

ولهذا نستطيع ان نجمع تحت عنوان هذا القسم ، عشرات المقــالات لكننا رأينا أن نقتصر على تقديم النماذج التالية ، لتقديم صورة عن أسلوب ابن باديس في صياغة النداءات بين كتاباته التي صدرت خلال عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، لان هذه الفترة تمثل مرحلة نضج التفكير السياسي وبدايـــات المجاهرة بتصلبه ويأسه من فرنسا .

وقد كان موقف ابن باديس ، انضمامه الى حركة المؤتمر الاسلامـــي الذي كان يأمل بتحقيق مشروع «بلوم-فيوليت» محل تعاليق وانتقادات عديدة ، فهناك من يسجل على ابن باديس انه ساند المطالبة «بالفرنسية» من خلال مساندته لمشروع بلوم ــ فيوليت .

وقد رأينا في المقال الذي تقدم ، بالقسم السابق ، عن « الجنسيـــة القومية والجنسية السياسية » تفسير ابن باديس لموقفه من مطالب «المؤتمر الاسلامي » وشرحه للفرق بين ما أسماه « الجنسية القومية » وبين مـــا أسماه « الجنسية السياسية » .

وفي هذه النداآت تأكيد عملي لموقف سياسي كان ابن باديس شرح قواعده وأصوله العقائدية .

فهو في النداء الاول الذي وضعنا عنوانا له « عش كريما أو .. » والذي كان عنوانه الاصلي هو « كلمة قالها ابن باديس ».

« تلخيص مندوب جريدة الامة الغراء بمناسبة اجتماع الوفد الجزائري بالشعب »

في هذا النداء يؤكد ابن باديس انذاره للاستعمار ، ويحذر باريس تفويت هذه الفرصة ، اذ أستتسبب في غلق قلوب الجزائريين « الى الأبد»، وبعدها « اما الحياة واما الممات » .

وفي النداء الذي وضعنا عنوانا له « برهنوا للعالم على انكم تستحقون الحياة ، والذي كان عنوانه الاصلي « نداء الى الامة الجزائرية ونوابها » دعوة صريحة الى توحيد الصف . وجمع الكلمة ضد الاستعمار .

أما « منشور المقاطعة » فقد كان دعوة الى سكان قسنطينة كي يقاطعوا الاحتفالات بمرور مائة سنة على سقوط قسنطينة . وكان ابن باديس آنذاك موجودا بتلمسان ، يحتفل بافتتاح مدرسة « دار الحديث » . ويبدو من خلال ما رواه بعض أصحابه، انه كان يريد نشر النداء في صحيفة « البصائر » « لسان حال جمعية العلماء » لكن أغلبية أعضاء الجمعية عارضوا في ذلك ، فقرر نشره في « الشهاب » باعتبارها جريدته ، ينشر فيها ما يعن له من آراء لا تلزم الجمعية المذكورة .

عش كريمـا أو ...

أيها الشعب انك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها ؛ تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها ؛ وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لاجلها.

اننا مددنا الى الحكومة الفرنسية أيدينا ، وفتحنا قلوبنا ؛ فان مـدت الينا يدها بالحب فتحنا قلوبنا وهذا هو المراد. وان ضيعت فرنسا فرصتها هذه فاننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها الى الأبد .

أيها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمـل وحافظ على النظام ، وأعلم ان عملك هذا على جلالته ما هو الا خطـوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات . وبعدها اما الحياة واما الممات [1] .

---

(١) الشهاب : ج ٦ . م ١٢ . غرة جمادي الثانية ١٣٥٥ هـ ـ سبتمبر ١٩٣٦ م .

برهنوا للعالم على انكم تستحقون الحياة

أيتها الامة الكريمة . أيها النواب الكرام ..

اليوم وقد يأسنا من غيرنا يجب أن نثق بأنفسنا .

اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا .

اليوم وقد خرست الأفواه عن اجابة مطالبنا يجب أن نقول نحن كلمتنا .

اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا ، يجب أن تتحد صفوفنا .

أيتها الامة الكريمة ، أيها النواب الكرام .

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الاسلامي أن نبقى تترامى على أبواب برلمان أمة ترى أكثريتها ذلك كثيرا علينا .. ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الاسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا .

أيتها الامة الكريمة ، أيها النواب الكرام . .

تناسوا الحزازات ، امحقوا الشخصيات ، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة ، برهنوا لفرنسا أنكم كما وقفتم معها في الحرب صفا واحدا تدافعون عنها ، تقفون في السلم صفا واحدا تدفعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها .

هذا وأنا كمسلم جزائري قد أديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببقيتها وعليكم السلام ورحمة الله من أخيكم [1] .

عبد الحميد بن باديس

---

(١) الشهاب : ج ٧ ، م ١٣ . رجب ١٣٥٦ هـ - سبتمبر ١٩٣٧ م .

على هامش (السانطونير) (١)

منشور المقاطعة

اخواني القسنطينيين .

في مثل هذه الايام منذ قرون مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون المهاجمون في ميدان البطولة والشرف ، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب .

ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة ، وضمد تلك الجروح وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض .

لكن قوما من الانانيين الذين يأبون الا أن يكونوا سادة متفوقين ، والا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين ، هؤلاء القوم -وليسوا كل الفرنسيين- أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة ، تثير العواطف ، وتمس كرامة الاحياء منا والأموات وتنافي مبادىء الأخوة والرحمة التي ندعوا اليها .

يحتفلون احتفالاتهم ومطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معطلة ،

---

(١) « السانطونير » كلمة فرنسية وتعني مرور قرن . والمقصود بها احتفال الفرنسيين بمرور قرن على سقوط مدينة قسنطينة والقضاء على مقاومتها العسكرية التي قادها احمد باي .

وحقوقه بسعيهم مهملة وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يـوم .

لهذا فقد اجتمعت ١٤ جمعية اسلامية من جمعيات قسنطينة يـوم السبت ١٨ سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد وكانت كلها مستنكرة لهـذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها فقررت ـ بالاجماع ـ ما يلي :

نحن ـ الممثلين لجمعياتنا ـ نرى احتراما لانفسنا واحتراما لاجدادنا واحتراما للانسانية :

أولا ـ أن لا نشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها .

ثانيـا ـ أن نكون في هدوء تام عام .

اخواني القسنطينيين .

قد فعل المؤتمر الاسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الاخير وقد كتب ذلك الاحتجاج الى الوالي العام وقدمه مكتب لجنة القسنطينية الى مير قسنطينة ، وفعلت الجمعيات الاسلاميـة القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقـدم . وأخوكـم هـذا ـ كقسنطيني ـ فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم ، فما بقي الا أن تقوموا أنتم بواجبكم .

فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها .

كونوا في هدوء وسلام [1] .

---

(١) الشهاب : ج ٩ ، م ١٣ . غرةرمضان ١٣٥٦ هـ ـ نوفمبر١٩٣٧م.

العَرَبُ في التَارِيخ

فيما يلي فقرات طويلة من تلخيص لمحاضرة كان ابن باديس قـــد ألقاها ارتجالا في الجزائر العاصمة بعنوان « العرب في القرآن » .

وتأتي أهمية هذه المحاضرة ، في نظرنا ، للاعتبارات التالية :

١) ـ تكشف عن نهج ابن باديس في تفسير القرآن ، وهو نهـج يختلف كل الاختلاف عن النهج التقليدي ، الذي يغرق في اللفظية ،ويقود في التفريعات الثانوية فهو هنا ينكر التفسير اللفظي ، بل ويسجل ان فائدة « السياحة اتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود .

٢) ـ تكشف المحاضرة عن ثقافة ابن باديس التاريخية ، وعـــن نظرته المتطورة للتاريخ .

٣) ـ خروجه عن النظرة المعهودة من علماء الديـن ، والتي تميل غالبـا الى انكار كل قيمة لتاريخ العرب قبل الاسلام .

العـرب في القـرآن

أيها الاخـوان :

جعلنا عنوان الخطاب « العرب في القرآن » وقلنا في أول كلمة منـه أن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام . فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعـد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة .

والعرب مظلومون في التاريخ فان الناس يعتقدون ويعرفـون أن العـرب كانوا همجا لا يصلحـون لدنيـا ولا لدين حتى جـاء الاسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات الى النور .

وهكذا يتخيل الغربيون العرب بهذه الصورة المشوهة، ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العـرب ليحذرنا من جاهلية اخرى بعد جاهليتهم .

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العـرب . والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية الى العرب فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد . والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب ، وجهات تذم وتقبح وجهـات يثنى عليهـا وتمدح . وهذه هي طريقة القرآن بعينها . فهو يعيب من العرب رذائلهـم

النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل • وينوه بصفاتهم الانسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات •

ولنذكر عادا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة قال تعالى : « فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة » •

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمم الارض في زمنها حتى ان الله جل شأنه لم يتحد قولهم : « من أشد منا قوة » الا بقوته الالهية التي يذعن اليها كل مخلوق ؛ ولو كانت في أمم الارض اذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الابلغ أن يتحداهم بها • وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها •

ومن هذه الاية وحدها نستفيد ان عادا كانت أشد الامم قوة وانها ما بلغت هذه الدرجة من القوة الا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الارض وان تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الالهية •

وان القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات وانما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة وانما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي وتحد الله بدليل قوله لهذه الأمة : « ويزدكم قوة الى قوتكم » فهو يضمن لهم انهم آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكينا وبقاء

ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي اليها والمنفر من الضعف وانما شرع القرآن بجانب الدعوة الى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل •

وكذلك قوله تعالى : « اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون »، فان هذه لآية ــ زيادة عن افادتها لمعنى ما قدمناه ــ تكشف لنا نواح من تاريخ هذه الامة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها فهي تدل على انهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والابنية وهو علم لا يستحكم الا باستحكام الحضارة في الامة ومأخذ هذا من قوله : « بكل ريع » •

والآية في قوله آية هي بناء شامخ يدل على قوتهم أو هي آية هادية للسائرين وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني •

ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة • وانما انكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ فمحط الانكار قوله : « تعبثون » ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل •

والمصانع ، يقول المفسرون انها مجاري المياه أو هي القصور ، وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث اليه •

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع

من الصنع كالمعامل من المعمل ، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران • وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه في الآية ، أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنـا ؟ بلى وأن المصانع الأول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجه •

ولا أغرب من تفسير هـؤلاء المفسرين للمصانـع الا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات والحـق أن السائحين هـم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار ، والقرآن الذي يحث على السير في الارض والنظر في آثار الأمـم الخالية خليـق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود •

ولا يقولن قائل اذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم فانه لم ينكرهـا عليهم لذاتها وانما أنكر عليهم غاياتها وثمراتهـا فان المصانع التي تشيد على القسوة ، والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية•

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه انسان لا آلة •

(واذا بطشتم بطشتم جبارين) لا بد لكل أمة تسود وتقوى مـن بطش ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافا وقصاصا واقامـة لقسطاس العدل بين الناس وفيه ما هو بطش الجبارين، والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بارادته لا بارادتك فبطشه انما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته وارضاء لظلمه وعتوه ، وتنفيذاً لارادته الجائرة التي لا تبنى على التشهي وهوى النفس لذلك لم ينقم منهم البطش لانه بطش وانما نقـم منهم بطش الجبابرة الذي كله ظلم •

وفي القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب وكالملاقة لحضارة عاد بعينها وهي حكاية عاد ارم ذات العماد •

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في سورة الفجر صريح بألفاظه ومعانيه في انه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها ، فالعماد لا تكون الا في القصور والابنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم ، وقد قال تعالى وهو العالم بكل شيء أنه : « لم يخلق مثلها في البلاد » ومدينة هذا وصفها لا تشيدها الا أمة لا نظير لها في القوة وآثار الحضارة يتبع بعضها في الضخامة والعظم والوصف القرآني لها وأن سبق للاتعاظ بعاقبتهم يدل الباحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها وهم أمة عربية • فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة • وأن الاقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى : « الم تر » علمية لان التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولم تتيسر له ، ولو ائتمرت الامم الاسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها ولو فعلوا لامكن أن يعثروا على آثار هذه المدنية أرض عاد وهي معروفة ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والاتعاظ ، واننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حف هذه الحكاية من أساطير • ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حينما تعرض لنقض تلك الاساطير •

وأمة أخرى من الامم العربية وهي ثمود ، وهي أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)• فأمة أية أمة لا تعمر

الأرض الا اذا ملكت وسائل التعمير وهي كثيرة ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية •

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة ايات بليغة الوصف ولكن أبلغها وصفا وأدقها تصويرا قوله تعالى : « أتتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » •

أما المغزى الذي سيقت هذه الآية لاجلـه فهو النهي عليهم ، كيف يستعينون بنعم الله التي يسرها لهم على الكفر به ، وانذارهم ان الكفـر بها وبسوءتيها سيكون سببا في زوالها وفي ضمن هذا عرفنـا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الارض • وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضـارة المادية وفنونها من زرع الارض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة وتقسيم المياه على تلك الغروس الى ما يستلزمها كل ذلك من علـم بحال الارض وطبائعها واحوال الاشجار المغترسة وطبائعها واحوال الفصول الزمنيـة واحوال الجو واحوال التلقيح والابار والجنى وعلم باصناف التمتع مـن مناظر ومجالس ومقامات ومآكل • ثم القيام على حفظ ذلك العمران من افساد الايدي السارقة وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لاجل تذكيرهم والتذكير بهم ، وقد ذكرهم القرآن في مواضع باتقانهم لنحـت الحجر والشجر والحجر والشجر عينا الحضارة المبصرتان ، ومن يعـرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف انها ما قامت الا على نحت الحجر وغرس الشجر •

وان نحت الحجر ليستدعي حاسة فنية ويستدعي مع ذلك قـوة بدنية وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالـة ملابسة فوصفهم مرة بانهم آمنون ومرة بانهم فارهون ، والفاره هو الذي يعمل بنشاط وخفـة

ولا يأتيه ذلك الا من خبرته بما يعمل وعلمه بدقائقه واعتياده له . ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء والرومان قد رسخت فيهم ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم في طالعة الخطاب .

هاتان أمتا من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما فكانتا لنا مصدرا تاريخيامعصوما في اثبات حضارة الشعوب العربية التي برزتفيها الأمم.

ولننتقل الآن الى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم وعرفوا المدنيات التي قامت فيها فسموها بالعربية السعيدة واننا اذا انتقلنا الى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس والمجد الباذخ والماضي الزاهر لهذه الأمة التي تفتخر بالانتساب اليها ونباهي الامم بمدنياتها بالحق والبرهان . واننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن .

قال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم في آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

ليس المقام مقام تبسط في وجود البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الايات فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور . وصورت لنا اطوارا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير ووصفت لنا بعض خصائص

الحضارة والبداوة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها كقوله : « قرى ظاهرة » وكقوله : «وقدرنا فيها السير» • وكقوله: « باعد بين اسفارنا » حتى اذا وصل القاريء الى مصير هذه الامة التي سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى : «فجعلناهم أحاديث» وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة •

اللهم ان السلامة في الساحل واننا لا نعدو موضوعنا تصور حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم الله وبرسله •

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ ، كانت مدنيةزاهرة مستكملةالأدوات ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما تفهم من آياته وعلم كما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال • ويمين من ؟ وشمال من ؟ انه ولا شك يمين السائر في تلك المدن أو الاراضي وشماله ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعا لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها والاكتشافات الاثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها وان كان على غير يد أهلها ــ تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الامم الى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الارض، واقامة السدود لا تتم بالكر البدوي •• والعمل اليدوي ، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضا فهي مترابطة متماسكة متلاحمة فما يكون السبأيون بلغوا في الهندسة مبلغا اقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ •

ولكن لما كفروا بأنعم الله واستعملوها في ما يسخطه ، سلط اللهعليهم

من الاسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم وذلك قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم .. الخ » .

ويقول في وصف عمرانهم : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة » يعني أن عمرانهم لم يكن محدودا ، وانما كان متصلا بعضه ببعض . فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها فلا يكاد المسافر يبرح المدينة حتى تبدو له أعلام الاخرى ، ولا يكون هذا الا اذا كان العمران متصلا . وهذا هو معنى الظهور في الآية فهو ظهور خاص . وتقدير السير هو أن يكون منظما ومن لوازمه أن تكون الاوقات مضبوطة بالساعات والطرق محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة ، وقوله تعالى : « سيروا فيها ليالي وأياما آمنين » يرشدنا الى امتداد العمران مسافة الليالي والأيام . ولا يتم العمران الا بالأمن ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدنية الذاخرة بسياج الايمان والشكر والفضيلة والعدل وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها الى الخراب ، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها ، فالقرآن يذكرنا كثيرا بمصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف في الاخرين كما لم تتخلف في الاولين .

وأما قوله تعالى : « قالوا ربنا باعد بين اسفارنا » فان المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره وأي عاقل يطلب بعد الاسفار ؟

والحقيقة انهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وانما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملا يفضي الى نتيجة لازمة فان العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة .

ولا زال الناس ـ على عاميتهم ـ يقولون فيمن عمل عملا يستحق عليه الضرب أو القتل : انه يقول اقتلني أو اضربني ، وهو لم يقل ذلك وانما أعماله هي التي تدعو الى ذلك ، فالمعنى أن أعمالهم هي التي لعبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والدال بالمدلول فكأن ألسنتهم قالت ذلك. ويؤيد هذا في القرآن كثير ومنه قوله تعالى : « سيجزيهم » وصفهم لان الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل القول يقل مدلوله في القول حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلا لان الجزاء اذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل وكل عاقل يقطع بأنه اذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه .

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم الله ، فهي كناية عن محو العمران وخراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها الا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير .

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد من الخراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بعدا على بعد .

وملكة سبأ وعرشها العظيم وملكها وما قصه القرآن من نبأها أعظم وأروع ، فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها : « وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » وما وصف عرش ملكة سبأ بالعظيم عند سليمان نبي الله الذي سخر له الجن والريح ـ الا وهو فيه نفسه عظيم .

هذه مدنيات ضخمة غيرت في هذه الأمة التي أهّلها الله لحمل الرسالة الالهية الى العالم وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها الله

للنهوض بالعالم وانقاذه من شرور الوثنية وبنيانها ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها ، وأن القومية موضوع مترامي الاطراف ، وليس من الممكن الاحاطة به في مثل هذا الخطاب ، وحسبي أن أكون قد خدمتها من هــذه الناحية التي هي خدمة للاسلام والقرآن وعليكم السلام [1]

---

(١) نشرت خلاصة هذه المحاضرة ، على ثلاثة اعداد من الشهاب هي التي صدرت على التوالي في شهر فبراير ومارس وابريل ١٩٣٩ .

فِي الوَحْدَةِ العَرَبِيَّة

جمعنا في هذا القسم الأخير من كتابات ابن باديس، ثلاث مقالات : تتناول الأولى « مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين » ، موضوع الوحدة العربية ، من خلال ما صدر عن سليمان باشا الباروني من تصريح كان قد صدر عن الامير شكيب ارسلان .

وهذا المقال مهم في الكشف عن مدى تتبع ابن باديس لما تكتبه صحف المشرق العربي ، كما يكشف عن المكانة التي يحتلها شكيب أرسلان في قلوب الجزائريين وابناء الشمال الافريقي .

لكن ابن باديس لم يكتف في هذا المقال باظهار من هو صاحب الحق في النقاش المذكور حول الوحدة العربية بل عقب عليه بمقال آخر حدد فيه موقفه من قضية الوحدة العربية وتصوره هو لهذه الوحدة ولطبيعتها وحدود امكانياتها . وهو في هذا المقال يؤكد أن الوحدة السياسية غير ممكنة الا بين شعوب مستقلة ، ولا تمكن بين بلد مستقل وآخر ما يزال يعاني من الاستعمار وآثاره . وهو هنا يصرح بأن البلد الخاضع للاستعمار مجبر على أن يعمل في دائرته الخاصة ، حسب ظروفه الخاصة ، الى أن يتحرر .

على انه في نفس الوقت يلح على وجود ما يسميه « بالوحدة القومية والادبية » و « ضرورة المحافظة عليها والمجاهرة بها » .

اما المقال الثالث ، فهو يتعلق بفلسطين . وعلى الرغم من ان كتابته

ترجع الى عام ١٩٣٨ ؛ فانه يسجل تفطن ابن باديس ــ هذا العالم الديني ــ الى طبيعة اسرائيل (قبل أن تصبح دولة) والى كونها نتيجة « التزاوج بين الاستعمار والصهيونية » •

كما تفطن ابن باديس منذ خمس وثلاثين سنة ، الى المقصود من وراء العمل على قيام اسرائيل وكون الهدف من ذلك هو « قسم الجسم العربي » • كما يبرز هذا المقال دور الغرب في خلق المشكل الاسرائيلي ، والى كون اضطهاد اليهود ظاهرة غربية لم تعرفها البلاد العربية ــ الاسلامية •

مساجلة عظيمة بين رجلين عظيمين

أما المسألـة العظيمـة فهي الوحـدة السياسية للأمـة العربية من المحيط الهندي الى المحيط الاطلنطيقي •

واما العظيمان فهما الامير شكيب ارسلان وسعادة سليمان بـاشا الباروني •

ولا تحسبن الكلام دار بينهما في بيان حقيقتهـا وامكان تحقيقهـا مما يحتاج رجال النهضة العربية الى دراسته والعلم به ليكونوا في سيرهم على بصيرة فلا يتقهقروا ولا يتهوروا• بل كان خطاب من شكيب في شأنها فكان رد من الباروني عليه باعلان البراءة منه ، جزاء اعلانه البراءة مـن مسلمي المستعمرات ثم دعا اهل العلم الى ابداء رأيهم فقال : « ولعل علماء الاسلام الغيورين على دينهم يبدون رأيهم فمن يعلن البراءة من مسلمـي المستعمرات المعذبين ولارضاء اعدائهم ومعذبيهم من المستعمريـن لينسد هذا الباب فلا يدخل منه غيره بعد اليوم » • الرابطة العربية عدد ٧٧ •

لم ينقل الباشا نص كلام الامير، ونصه كما نقلته «الجزيرة» الدمشقية في عددها الصادر في ٢٤ رجب المـاضي : « امـا طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش فهذه بلاد عربية وان كان فيها بربر اكثر مـن العرب ، فان ثقافة هؤلاء البربر عربية وهم على كل الاحوال مسلمون ، فهذه الامة هي منا ومعنا كما ان قلوبنا متحدة بيننا وبينهـم ، ولكن هناك اسبابـا

جغرافيـة تمنع اتحادنا معهم اتحادا فعليـا ، وهم ليسوا من برنامجنـا ولا تتكلم على الوحدة معهم لاننا نجعل لنا اعداء اقوياء ونحن في غنـى عن ذلك الآن .

نحن نريد تحقيق وحدتنا العربية في آسيا ، ولكن وجـود وحدة سياسية من اخواننا مسلمي شمالي افريقيـة (يعني : تكون منهم فيمـا بينهم) لا يمنع أن يكون بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافية دينية اجتماعيـة وأن تكون قلوبنا مرتبطة بقلوبهم في السراء والضراء » .

فأين هي براءة الامير من مسلمي المستعمرات التي زعمها الباشا .

أم كيف يكون متبرئا من يقول « فهذه الامم هي منا ولنا ومعنا كما أن قلوبنا متحدة بيننا وبينهم » ويقول « بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافيـة دينية اجتماعيـة و .. قلوبنا مرتبطة بقلوبهم في السراء والضـراء » .

فما بقي الا انه لا يرى ادخالهم في برنامج الوحدة السياسية العربية بين الشعوب العربية غير المستعمرة حتى لايثير ثائرة الاعداء الاقوياء الذين لا حاجة باثارة عداواتهم الآن ويرى الى هذا الوجود وحدة سياسية من مسلمي شمالي افريقيا .

وهذه نظرية سياسية محضة قابلة للاخذ والرد وكل وجوه المناقشة غير انها لا تعد عند احد براءة من مسلمي المستعمرات كما زعم الباشا .

وقد زار الاستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلاني صاحب « الجزيرة » الامير واخذ منه تصريحا برأيه في الوحدة العربية نشره في العدد الصادر في ١ شعبان من «الجزيرة» وهو كلام ــ كما قال الاستاذ ــ واضح صريح لا يحتاج الى تفسير او توضيح . وهذا نصه :

« فيما يتعلق بالامصار الواقعة في شمالي افريقيا يرى ان يكتفي في الوقت الحاضر بايجاد صلات معنوية وروابط روحية بينها وبين هذه الأقطار (يعني : غير المستعمرة) التي خطت خطوات موفقة في سبيل الوحدة العربية حتى أصبحت فكرة اتحادها وتضامنها ليست من الأمور الصعبة والمسائل الخيالية كما كان يتوهم الكثيرون •

ولكن عطوفته يرى أن أثارة الوحدة السياسية بين هذه المجموعة الاسيوية والمجموعة الافريقية في هذه الظروف العصيبة ، مما يثير علينا مشاكل جمة ومتاعب عديدة لا قبل لنا باحتمالها ودرئها ونحن ما زلنا على عتبة الاستقلال والسلطان القومي •

وهذا التصريح جلي في أن الامير لا يعارض الا في اثارة الوحدة السياسية في هذه الظروف لما يخشى من مشاكل ومتاعب فأين هذه البراءة التي زعمها الباشا وهول بها ؟

نرى واجبا علينا بعد ما نقلنا كلام الامير واطلع عليه القراء ، أن ننقل من مقال الباشا المنشور بعدد ــ الرابطة العربية ــ المتقدم ما فيه رمي الامير بالبراءة من مسلمي المستعمرات ليرى القراء بانفسهم مقدار مطابقته للواقع ومسافة ما بينه وبين الحقيقة •

قال سعادة الباشا :

١ ــ « وأما شكيب فيعلن (بدون داع وبدون أن يسأله أحد عن رأيه في الاتفاق مع المسلمين المصابين بالاستعمار) براءته من المسلمين كافة من المغرب الأقصى الى نهاية الهند ومن التركستان الى البلقان الا عرب الجزيرة ومصر (الغنية بذهبها الوهاج) •

٢ ـ « اذ دفع فيها (الخطبة) شكيب باحدى يديه طرابلس برقة معلنا البراءة منها طلبا لرضاء ايطاليا ودوام ابتسامة موسوليني الذي يتفانى في حبه (وهو لاه عنه) لادنى مناسبة » •

٣ ـ « ويدفع شكيب باليد الأخرى تونس والجزائر ومراكش والسودان توددا لفرنسا المسيطرة على بلاده معلنا بذلك براءته من الجميع » •

٤ ـ « فما معنى براءة شكيب اليوم من مسلمي طرابلس برقة وافريقيا كلها (الا مصر الغنية بالذهب) وما هي النعمة التي ستزول عنهم والنقمة التي ستحل بهم وتجعلهم يحزنون من اعلان هذه البراءة الجوفاء من طرف شكيب ارسلان • وعلى هذا القياس القول في رجال المغرب والمشرق كله الذي اعلن شكيب براءته منهم ارضاء للمستعمرين •»

٥ ـ « وأما افريقيا ففقيرة لا تستحق بعد أن نضب ضرعها الذي كان يدر على كثيرين من دعاة الاسلام لبنا خالصا الا أن يقال لها اليوم بعدا وسحقا لك فان رضاء المستعمرين أنفع لنا من رضائك » •

٦ ـ « وأن يعاتبوه (السوريون) على تعليله براءته من مسلمي المستعمرات بأنه لا يتحمل عداوة المستعمرين في سبيل أولئك المسلمين ناسيا أو متناسيا ما كان يتظاهر به من الانتصار للاسلام ومعتنقيه في كتاباته وخطبه القديمة أيام كان المسلمون أعزة وكرماء » •

٧ ـ « واضطر فيه (وقت كهذا) الى اعلان البراءة من صديق قديم

٨ ـ « أما وقد تظاهر اليوم باعلان براءته من المسلمين المستعمرة

بلادهم فلم يكن بد من الكلام ، اذ قد علل ذلك بأنه لا يتحمل عـــداوة دول الاستعمار لاجل صداقة مسلمي مستعمراتها ونسى الاخوة الاسلامية التي لا يغفل عن ذكرها » •

٩ ــ « ومما يؤسف له أن يعلن شكيب أرسلان براءته على رؤوس الاشهاد في سوريا ومن المغرب كله تزلفا لفرنسا » •

١٠ ــ « ••• الاهانة التي صوبها الى اخوانهم رجال شمال افريقيـا الاخ الارسلاني طلبا لرضا ايطاليا وفرنسا » •

ماذا يقول القراء بعد وقوفهم على الكلامين ؟ أما نحن فقد قضينا ــ والله ــ عجبا من هذا البهت والتحامل اللذين لا مبرر لهما ولقد وقفناقبل أن نكتب لفظتي البهت والتحامل وحاولنا أن نجد غيرهما تقوما مقامهما فلم نجد الا اذا خالفنا الحقيقة وسمينا الاشياء بغير أسمائها • ولكننـــا ــ مع هذا ــ نلتمس لسعادة الباشا العذر من مرضه الذي هو في حالـة ثقة منه والحمد لله •

بقي في كلمات سعادته ملاحظات ينبغي التعليق بها وها هي مرتبة على حسب الارقام •

١ ــ نظن أن الذي دعا للامير الى ما قاله عن الوحدة السياسية أنـه كان بصدد تقرير الوحدة العربية فأراد ان يبين ما يريد من التفريـــق بين الوحدة السياسية وغيرها حسب نظرته ، وأما مصر فانما ادخلهـا في الوحدة السياسية وهي افريقية لانها مستقلة الى حد بعيد • وأما ذهبهـا الوهاج فنظن انه لا يقدم ولا يؤخر لو لم يكن ذلك القدر العظيم مـــن الاستقلال •

٢ ـ نظن أن الامير لو كان ممن تستبيه الابتسامات لاستبتـه ابتسامات انكلترا التي لا نشك انها ابتسمت له كما ابتسمت لغيره ممن يعيشون في مناطق نفوذها • •فأعرض عنها فحرمت عليه حتى النزول في مصر رغم دستورها واستقلالها •

٣ ـ واما فرنسا فلو كان الامير يتودد اليها لتودد اليها أيام كانت بلاده تحت نير انتدابها التام وهو مقضى عليه بالابعاد منها • وكيف يمكن أن يتودد اليها وهو يعلم أن جرائدها تصفه بالعدو وتنسب اليه ـ زورا ـ كثيرا مما هو واقع في مستعمراتها ومن خطاب م• سارو أمام لجنة الجزائر والمستعمرات : « شكيب ارسلان ذلك العدو القديم لفرنسا والذي لا تزول عداوته » وكيف يتودد ادنى العقلاء الى من يصارحه بالعداوة وينسب اليه المناوأة التامة ، فكيف بمثل الامير ؟

٤ ـ قضى الامير شكيب ايام غربتيه في سويسرا محاربا للاستعمار كله في خطبه وكتبه ومقالاته الكثيرة جدا في صحف الشرق والغرب بالعربية والفرنسية وفي مجلته « لاناسيون اراب » المشهورة في أنحاء المعمورة وهو في ذلك كله يغضب المستعمرين ويكربهم ويحز في حلاقمهم هذا وهو طريدهم ، وبلده في استعبادهم فكيف صار اليوم وقد شاب فوديه وتحررت ـ الى حد ـ بلاده ورجع كما رجع سائر المبعدين اليها يطلب رضا المستعمرين ؟ هذا نظن انه غير معقول •

٥ ـ من هم هؤلاء الكثيرون من دعاة الاسلام الذين كانت افريقيا تدر عليهم لبنا خالصا ؟ اجمال الدين ؟ أم محمد عبده ؟ أم رشيد رضا ؟ أم شكيب ارسلان ؟ فان كان هو شكيب كما قد يزعم الباشا فهو واحد

فأين الكثير • ان مثل هذه الكلمة الغالية المتجاوزة تدلنا على أن سعادة الباشا لم يكن يضبط ما يقول •

٦ ــ لقد كان شكيب منقطعا لنصرة المسلمين المستعبدين أينما كانوا كما تشهد بذلك آثاره التي ذكرنا والمسلمون المستعبدون أذلة لمستعبديهم فقيرهم قعد به العجز وغنيهم غل يديه البخل وهم ــ ألا قليلا ــ قد فرطوا في واجبهم نحو مشاعرهم التي بين أيديهم وأمام أعينهم فضلا عما هو بعيد عنهم كمجلة شكيب الوحيدة في بابها • فمتى كان المسلمون الذين دافع عنهم شكيب طوال أيام غربته أعزة كرماء ؟ حتى يزعم الباشا أن شكيبا دافع عنهم أيام عزهم وكرمهم يعني وتبرأ منهم اليوم يوم ذلهم وفقرهم • كلا الامرين بالعكس يا صاحب السعادة فان المسلمين كانوا أذلة واليوم تنسموا شيئا من العز وكانوا أشحة واليوم نشطت فيهم روح البذل فما خدمهم شكيب ــ اذا أنصفنا ــ الا أيام ذلهم وشحهم •

٧ ــ من المعلوم أن من الواجب في المذهب الاباضي البراءة من المخالفين كما قال صاحب (النيل) في باب فرز دين الله (ويصل لفرزه باسمه وصفته ومن ينسب اليه من أئمته وولايتهم وبراءة من خالفهم وتخطئته) فلا عجب أن يتبرأ سعادة الباشا من الامير كسائر المخالفين وانما نظن أن سعادته يقصد البراءة الخاصة التي توجب الهجران والمقاطعة لارتكاب جريرة • ولكنها براءة في غير محلها لانه قد تبين أن الامير لم يقل شيئا مما رماه به الباشا •

٨ ــ لم يقل شكيب أنه لا يتحمل عداوة الاستعمار لاجل صداقة مسلمي مستعمراتها ولا ينسى الاخوة الاسلامية بل قد صرح بالصلات المعنوية والروابط الروحية واتحاد القلوب وارتباطها في السراء والضراء

والوحدة اللغوية والثقافية والدينية والاجتماعية وأننا منهم ولهم ومعهم أفبعد هذا كله يقال عنه ــ زورا ــ أنه : لا يتحمل عداوة دول الاستعمار لاجل صداقة مسلمي مستعمراتها ؟ هذا ــ والله ــ عظيم .

٩ ــ يصمم الباشا على أن الامير يتزلف لفرنسا بهذه البراءة المزعومة ولماذا يتزلف لها ولا سلطان لها عليه ولا طمع له في سلطانها ، ولم يتزلف لها وهي تذيقه علقم البعد عن الاهل والوطن . كيف يتزلف لها اليوم وهو في أهله ووطنه بفضل أمته وحكومتها لا بفضل فرنسا عليه .

١٠ ــ ليس فيما نقلناه من كلام الامير شيء تشم منه رائحة الاهانة وكيف يكون من يصرح بتلك الروابط ويشير بالوحدة السياسية لعرب شمالي أفريقيا مهينا لاخوانه . كلا ، وانما هو خبير مجرب وسياسي محنك يفرق بين ما يمكن وما لا يمكن الا بعد زمان .

ها نحن لبينا دعوة الباشا فابدينا رأينا في كلام الامير وكلام سعادته بعد نقلهما بنصهما ولو وجدنا ــ علم الله ــ شيئا مما زعمه الباشا في كلام الامير لوقفنا معه الموقف الذي يوجبه الحق والشرف وأخوة الاسلام دون أدنى هوادة او لين .

وقد اقتصرنا من كلام سعادة الباشا على ما يتعلق بالبراءة المزعومة دون بقية المقال وان كنا منكرين لكثير مما فيه ، لاننا لم نقف موقف المدافع عن الامير اذ له من قلمه ما يغنيه عن دفاع مثلنا .

غير أن هناك ملاحظة لا بد من أبدائها وهي ان روح المقال ــ في نظرنا ــ روح هدم لماضي شكيب ارسلان برمته وتصويره بصورة الرجل المادي الذي ما كان يحركه الا حب المال . وعزيز علينا ــ والله ــ مثل

هذا النكران من رجل عظيم لرجل عظيم ، ومحزن لنا ـ والله ـ ومفتت لاكبادنا أن نسرع هذه السرعة في هدم عظمائنا سواء أكان الهادم الباروني لاخيه شكيب أو العكس أو غيرهما • وأننا لنعرف هذه الروح الهدامة فينا معشر الشرقيين ولكننا ما كنا نظنها تبلغ المستوى الذي رقيه الباروني ومثله •

فيا ليت قومنا يذكرون دائما قول أبي الحسن ابن الرومي :

لا تضع من عظيم قدري وان كنـ ت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا بالتعدي على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ـر بتنجيسها وبالتحريم

بل ليتهم يتأدبون بأدب الله في قوله جل جلاله « يؤت كل ذي فضل فضله » فلا ينكرون الاحسان الكثير لاجل السوء القليل ، ان كان هذا السوء القليل •

هذا رأينا فيما بين الامير والباشاء أما رأينا في الوحدة السياسية وفي عروبة شمال افريقيا فسنبديه في العدد الآتي ان شاء الله •

هذا وكأنني بـ : م • سارو وغيره يضمون كتابتي هذه الى حججهم على ما يرمون به الامير وما يرموننا به • ونحن ما انكرنا يوما بيننا وبين عظماء أمتنا الاسلامية والعربية من روابط متينة وعلائق قوية وان لم تكن بيننا معرفة شخصية ولا كتابية •

ونحن نكلف بالعظمة وندافع بالحق ، ولو لم تكن منا ، فكيف بها اذا كانت منا ــ وقديما قال شاعرنا ابو عبادة البحتري :

وأراني من بعد اكلف بالاشـ   راف طرا من كل سنخ وجنس

عبد الحميد بن باديس

---

(١) الشهاب : ج ١٠ ، م ١٣ . ٩ شوال ١٣٥٦ هـ ــ ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ م .

الـوحـدة العربيـة

هل بين العرب وحدة سياسية

اذا قلنا العرب فاننا نعني هذه الامة الممتدة من المحيط الهندي شرقا الى المحيط الاطلنطيقي غربا ، والتي فاقت سبعين مليونا عداً تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقدارا عظيما من دمها وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى اصبحت أمة واحدة .

هذه الامة العربية تربط بينها ــ زيادة على رابطة اللغة ــ رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الالم ، فالوحدة القومية والادبية متحققة بينها ولا محالة . ولكن هل بينها وحدة سياسية ؟ هذا هو الموضوع الذي طرقه الامير شكيب ارسلان وقال فيه كلمة السياسي العلمي والخبير المحنك فتعرض له سليمان باشا الباروني بمقال نقضناه عليه في الجزء الماضي وفضحنا ما فيه من خطأ وتحامل .

الوحدة السياسية لا تكون الا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الامم ، وتتعاقد على تنفيذها وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة ، فهي مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها ، وأما الامم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع

غيرها • وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمـد عليها في خارجيتها ؟ فالوحدة السياسية بين هذه الامم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول •

واذا نظرنا الى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فانّا نجد منها شعوبـا مستقلة استقلالا حقيقيا فهذه تمكن بينهـا الوحدة السياسية وتجب • وقد وقعت في هذه الايام ــ والحمد لله ــ فعلا بين المملكـة السعودية والعراق واليمن ومن المنتظر انضمام مصر والشام اليهم يوم يتم استقلالهما • ثم نجد شعوبا أخرى وهي شعوب الشمال الافريقي المصابة بالاستعمار فهذه لا وحدةسياسية بينها ولا بينغيرها ولا يتصور أنتكون، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على مـا يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور التام بالوحدة القومية والادبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها ، ونحن نعلم أن الواقع في شمالنا الافريقي العربي هو هـذا بعينه ، فنقول ــ بكل صدق وصراحة ــ ان كل شعب من شعوب هذا الشمـال مستقل تمام الاستقلال بخططه في سياسته ، لا نعرف هيئة منهم تتصـل بهيئة مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والادبية العامة•

والامير شكيب الذي تعده الدول المستعمرة ألدّ أعدائها وتنسب اليه ــ ظلما وزورا ــ كل حركة تقع في الامم المصابة باستعمارها يصـرح في خطابه بعدم الوحدة السياسية بين شعوب العرب المغلوبة على أمرهـا وشعوبهم المستقلة ، لانه ــ وهو أكبر مدافع عن العرب والاسلام فـي الغرب والشرق ــ رجل عملي ليس بخيالي ، وسياسي مجرب خبير يعرف ما يقول.ويفرق بين العمل المثمر والقول الفارغ الذي يثير الضجيج لينسب

صاحبه الى الغيرة والحماس ، وان كان يثير الغبار ويكدر الجو في نـواح أخرى . هذا رأينا فـي الوحدة السياسية بين شعوب العرب . ونحـن نعتقد أنه هو رأي جميع اخواننا العاملين في هذا الشمال [١] .

---

(١) الشهاب : ج ١١ ، م ١٣ . غـرة ذي القعدة ١٣٥٦ هـ ـ جانفي ١٩٣٨ م .

رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة ، وقد قال الله فـي المسجد الاقصى في صورة الاسراء : « الذي باركنا حوله » ليعرفنا بفضل تلك الرحاب . فكل ما هو واقع بها كأنه واقع برحاب المسجد الحـرام ومسجد طيبة .

حمى الاسلام تلك الرحاب من أيامه الاولى ، وحمى جميع مقدسات جميع الملل وكف عادية بعضهم عن بعض وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش وحرية المعتقد واحترام المعاهد .

تزاوج الاستعمار الانكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فانتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الاعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهـم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق وجرحوا قلب الاسلام والعرب جرحا لا يندمل .

نقول ، لقسم كبير من اليهود ، لان هنالك من اليهود عددا كثيـرا يستنكر هذا المأتى الجنوني الظلوم ، ويعترف بجميل الاسلام والسعـادة التي نعم بها اليهود ويهود القدس في ظله الوارف الامين . فقد قـدم رئيس الطائفة السامرية الى حاكم نابلس عريضة احتج فيها باسم الطائفـة على الاعتداءات الاثيمة التي وقعت على العرب في القدس وحيفا ويافـا هذا نصها :

« نحن أفراد الطائفة السامرية رجالا ونساء نستنكر بشدة أعمال الاعتداءات الفظيمة التي يقوم بها أشخاص من اليهود ضد قوم أبرياء في حيفا ويافا والقدس ، ونطلب بشدة الحيلولة دون تكرار هذه الحوادث المروعة ونصرح باننا — على اقليتنا — نعيش منذ الوف السنين مع مواطنينا العرب في سلام ، ولم يحدث أن اعتدى منهم احد علينا او حاول اضطهادنا » .

هذه هي الحالة العامة التي كانت عليها فلسطين الوف السنين حتى جاء الزوجان المشئومان الصهيونية والاستعمارية فكان البلاء على فلسطين كلها عربها ويهودها . فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها ولا بين كل مسلم ويهودي على وجه الارض ، بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانكليزي من جهة والاسلام والعرب من جهة والضحية فلسطين والشهداء حماة القدس الشريف . والميدان رحاب المسجد الاقصى ، وكل مسلم مسؤول اعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك ، من أرواح تزهق وصغار تيتّم ونساء ترمّل وأموال تهلك وديار تخرب وحرمات تنتهك ، كما لو كان ذلك كله واقعا بمكة أو بالمدينة ، ان لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع .

يريد الاستعمار الانكليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربي وحط قدس الاسلام فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم. ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند الجنود الانكليز، وتجمع أموال الصهيونيين، وتسفك الدماء البريئة وتلطخ بها الرحاب المقدسة .

يجري كل هذا وترتفع له أصوات العالم الاسلامي والعالم العربي بالاحتجاج والاستنكار ويخاطب ملوك العرب والاسلام حكومة الانكليز فلا تزيد آذانها الا صمما ولا قلبها الا تحجرا .

نقول العالم الاسلامي والعالم العربي ، لاننا لم نر ولم نسمع من غيرهما احتجاجا جديدا واستنكارا صارخا حتى الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها بصراخهم ويبذلون من مساعداتهم في أوطان أخرى لم نرهم ازاء فلسطين الشهيدة الا سكوتا أو شبه سكوت وشتان ما بين من يريد المقاومة ومن يريد رفع الملام .

نحن ــ المسلمين ــ اعداء الظلم بطبيعتنا الاسلامية ونرحم المظلوم ولو كان هو ظالما لنا . منذ أيام كنت في حانوت تاجر مسلم وقد قرأ علي أخبارا عن اضطهادات المانية جديدة على اليهود فلما فرغ من القراءة قال لي : «هذا يا شيخ حرام عندنا في الاسلام احنا نخلي الناس كلهم يعيشوا بأموالهم » فقلت له : نعم ، وأخذت أبين له كيف عاش اليهود في ظل الاسلام . هذا عامي من أوساط الناس متمسك بدينه ومتألم من حالة القدس الشريف ويعرف أن بلاءها من مهاجرة يهود المانيا وغيرهم ومع ذلك يستنكر ما يلحقهم من الظلم . وها هم اليهود اليوم قد شردتهم المانيا ومن قوانينها الجديدة عليهم بيع أملاكهم ببرلين بالمزاد العام ومنعهم في المستقبل من الامتلاك ، ومنعهم من صناعة الطب بتاتا ، والحكومة اليونانية منعتهم من دخول ارضها ولو على سبيل السياحة ، وايطاليا أخذت في اضطهادهم بأساليب علمية دقيقة وسياسية قاتلة ، وفرنسا أيضا قد هبت عليها هبات من هذه السموم ستصيب اليهود أو قد أصابهم شيء من لفحها هذا حالهم بين الامم المسيحية وقد عادوا ــ أو كادوا ــ كما كانوا في القرون الوسطى لا يطمئنون على ازواجهم وأموالهم وثقافتهم الا في بلاد الاسلام ، وها هم مع ذلك يستمرون على ظلم الاسلام في قدس الاسلام ولا ناهي لهم ولا ناصح ممن يسمعون لنهيه ونصحه، وما يدريهم

ان هذا البلاء الذي ابتدىء بصبه عليهم هو جزاء ظلمهم لفلسطين ظلم الفعل وظلم الرضا وظلم السكوت عن الاستنكار • وان الله لينتقم من الظالم بالظالم ، ثم ينتقم من الجميع •[1]

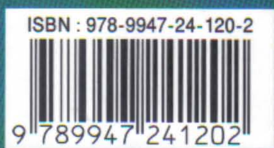
---

(١) الشهاب : ج ٦ ، م ١٤ . غرة جمادي الثانية ١٣٥٧ هـ ـ اوت ١٩٣٨ م •

فهرس

ردمك: 2-120-24-9947-978: ISBN
رقم لإيــداع: 495-2007

سحب الطباعة الشعبية للجيش
2007


ISBN : 978-9947-24-120-2